

اندریہ کریٹون

# روسو

حیاتہ - فلسفہ - منتخبات

ترجمہ

نبیہ حقیر







روبو  
حیاتہ - فلسفہ - منتخبات



اندر ربه كرسون

روسو

حیاته - فلسفته - منتخبات

ترجمة

نبیه صفتی

منشورات عویدالیت  
بتهروت - بباریبیل

جميع حقوق الطبع العربية في العالم محفوظة لدار  
منشورات عويدات  
بيروت - باريس  
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية  
Presses Universitaires de France

الطبعة الرابعة ١٩٨٨



## حياته

« هوذا أوصاف رجل رُسمت طبقاً لطبيعتها ،  
ولكامل حقيقتها ؛ انها الصورة الوحيدة من نوعها التي  
توجد الآن ، وربما في كل زمان ومكان » .  
مكثدا تبدأ « اعترافات » جان جاك روسو ؛ ولا  
شك في ان سيرة حياته هذه تتضمن وثائق شخصية  
لا شبيه لها في سائر السير التي نُشرت حتى الآن ؛  
والى هذه الوثائق سوف نلجأ لكي نرسم حياة جان  
جاك روسو ، مع احتفاظنا ببعض التصحيحات  
والاضافات اللازمة .

## ١ - روسو حتى ذهابه الى باريس

( ١٧١٢ - ١٧٤١ )

رأى جان جاك روسو النور في مدينة جنيف في ٢٨ حزيران سنة ١٧١٢ . كانت عائلته من اصل فرنسي ؛ فاحد اجداده ، ديديه روسو ، كان قد هاجر مع عائلته ، خلال الحروب الدينية ، من مدينة مونفيرى الى جنيف ؛ اما والد جان جاك ، اسحق روسو ، فكان ساعاتياً ومعلم رقص في آن واحد ؛ وكانت قد اقترنت بالفتاة سوزان برنار ، وهي مواطنة من جنيف - كما كانت هو ، ايضاً ، مواطناً من المدينة ذاتها - فولدت له ابنها البكر فرنسوا . وبعد ولادة هذا الصبي بقليل ، ذهب والده في طلب الرزق الى القسطنطينية حيث اقام ستة اعوام ثم عاد الى جنيف سنة ١٧١١ ؛ وفي السنة التالية ، توفيت زوجته بعد ثمانية ايام من وضعها ولدها الثاني جان جاك ؛ « ولدت ضعيفاً ومريضاً ، وقد دفعت والدتي حياتها ثمن ولادتي ، هذه الولادة التي كانت أولى مصائبى » .  
دفع الطفل الى عمته سوزان لكي تعتني به ، فربته بكل عناية وتفان .

لم يكن الوالد اهلاً للسهر على تثقيف اولاده: فلما  
يمرن جان جاك على القراءة ، وهو لم يتجاوز ، بعد ،  
السنة السادسة من العمر ، كان يطلب اليه ان يقرأ  
بصوت عالٍ قصصاً كانت والدته قد قرأتها ؛ وكانت  
اللياني تمر على هذا النسق . « والدي يقول  
بجمل وقد سمع اصوات السنونو تحيي الصباح: لنذهب ،  
الآن ، الى النوم ، اني طفل اكثر منك » . وحينما  
أتيا على قراءة جميع القصص الموجودة ، اصبحت  
المطالعة اكثر رصانة ، مستعمرة كتب الجدد ، وهو قسيس  
بروتستانتي ذو تفكير وذوق : هذه الكتب هي :  
« خطاب عن التاريخ العام » تأليف بوسويه ،  
« محاورات الموتى » تأليف فونتيل ، « التحولات »  
تأليف أوفيد ، وبعض قطع من مولير ، ثم تأليف  
بلوتارك .

لقد اثمرت هذه المطالعات تأثيراً واضحاً في نمو  
ثقافة جان جاك . قال : « لقد عرفت الشعور قبل  
ان اعرف التفكير ؛ هذا نصيب البشر المشترك ،  
ولكنه كان نصيبي اكثر من غيري ... لقد اكتسبت ،  
بهذا المنهاج الخطر ... فهماً فريداً ، بالنسبة الى عمري ،

وذلك في ما يتعلق بالميل والأهواء . لم يكن تصوري  
الاشياء قد بدأ ، حينما كنت قد تمست بجميع العواطف  
والاحاسيس . لم اكن قد فكرت بشيء ، ولكنني كنت  
قد أحسست بكل شيء .

إن كان والد جان جاك وعمته قد اعتنيا به ، فانها  
قد أهملتا العناية بالأبن الثاني ، فرانسوا ، الذي كان  
يكبر اخاه بسبع سنين ، فترك البيت الوالدي سنسة  
١٧٢١ ، وكان هذا آخر العهد به .

بعد دخول اسحق روسو مشاجرة عنيفة واعتدائه  
بالضرب على الغير ، وهرباً من ملاحقة العدالة له ، فر  
من جنيف الى نيون على ضفاف بحيرة ليمان وأقام هناك ؛  
اما جان جاك فقد وُضع في مدرسة داخلية عند  
القسيس البرتستاني لامبرسيه ، في بوساي ، الواقعة على  
سفح جبل سالييف ، حيث وجد رفيقاً له في دروسه  
والعابه ، وهو احد انسابه المدعو برنار . كانت الحياة  
في بوساي تلائم كل الملاممة جان جاك : « لم يكن  
ينقص تلك الحياة الا ان تدوم اكثر لكي ترسخ في  
ظلمها امر اخلاقي » . « كان هدي الوحيد ، آنذاك ،  
ان أحبب بي كل من يقترب مني » .

بالحقيقة ، عرف استاذہ ، لامبرسيہ ، ان يولمہ  
بالدرس ، وان يقدق عليه المواعظ الاخلاقية ، وان  
يشفيه من بعض الشوائب النفسية . كانت الانسة  
لامبرسيہ ، اخت القسيس ، قد اكتسبت محبة جان جاك  
واصبح يخشى ، اكثر ما يخشى ، ان يفعل ما يفيظها . مع  
ذلك ، كان يحدث ان تغضب منه وتقاصه . وقد اتفق ان  
أجرت عليه ، ذات يوم ، قصاصاً يدويًا قال عنه في  
« اعترافاته » انه شعر ، « مع الوجع الذي سببه له  
هذا القصاص ، بشهوة جنسية جعلته يرغب في احتمال  
مثله اكثر مما يخشاه » .

بقي جان جاك في مدرسة بوساي الداخلية سنتين .  
وذات يوم ، اتهموه ، ظلمًا ، بانه كسر مشطًا للانسة  
لامبرسيہ ، وعاقبوه عقابًا صارمًا : « ان هذا الاحساس  
الاول بالعنف والظلم ظل هكذا راسخًا في نفسي حتى  
ان كل ما كان يذكرني به كان يبعث ، مجددًا ، هذا  
الاحساس المرير في نفسي ... وحتسى ان قلبي كان  
يضطرم غيظًا وحنقًا لدى مشاهدتي اي عمل ظالم ، او  
لدى سماعي به ... كان هذا الظلم واقسع علي ، انا ،  
ذاتي » .

أعاد العم برنار جان جاك الى جنيف حيث بقي  
بضعة اشهر بانتظار ما سيقررونه بشأنه ؛ وبما ان والده  
كان في نيون ، فقد ذهب لزيارته ، ولكنه لم يُقم  
عنده طويلاً .

فكّر جان جاك بان يصبح قسيساً بروستانتياً ؛  
لكن ذويه ارادوا ان يتخذ مهنة يدوية ، فوضعه عند  
النقاش دو كومان الذي تكفل بان « يربيه ويثقفه  
لكي يعيش بخوف الله كما يليق برب عائلة » . كان  
دو كومان مستهتراً ، عنيفاً ، اناجياً ، فنفر منه جان  
جاك ؛ و ان استبداد معلمي كسّرهنّي في النهاية بالشغل  
الذي كنت مستعداً لان أحبه ، وأورثني النقائص التي  
كنت مستعداً لان اكرهها . « جوع الصبي حتى  
اضطّر ، اولاً ، الى سرقة الطعام ، ثم تطرّق الى  
سرقة أشياء كان يبيعها ؛ لكنه كان قد أولع بالمطالعة  
ولما شديداً . لاحظ معلمه انه يقرأ في اوقات الشغل  
فعاقبه بقساوة دفعته الى ان يعيش « منطوياً على ذاته  
اكثر فاكثر ، كما يقول .

بيد انه كان يُتاح له ، ايام الاحاد ، ان يتنزه مع  
بعض الرفاق في الحقول البعيدة ، حتى اتفق له ، مرتين ،

ألا يعود إلا وقد أغلقت ابواب المدينة فيلاقي التوبيخ  
والعقاب ؛ اما في المرة الثالثة ، فلم يشأ ان يعود الى  
معلمه ، وعزم على ترك جنيف .

هوذا ، اذن ، جان جاك هائماً على وجهه في الحقول  
في ١٤ اذار سنة ١٧٢٨ ؛ لكنه لم يبتعد كثيراً عن  
جنيف . وفي مدينة كوتفينيون ، دعاه الأب بوتشير الى  
الغداء معه ، ولربما كان سبب هذه الدعوة ان الأب  
بوتشير وجد فرصة ليخلص نفسه ؛ لذلك أعطى جان  
جاك رسالة توصية الى سييدة محسنة تقيم في مدينة  
أنسي ، وكانت هذه السييدة مدام دي وارانس .

وصل روسو الى أنسي يوم احد الشعانين ، وكانت  
مدام دي وارانس قد خرجت لكي تحضر صلاة العيد ،  
فذهب جان جاك للالتقاء بها ؛ وبينما كان ينتظر ان  
يجد « سييدة درمة ، متعبدة ، صارمة ، فقد وجد  
« وجهاً معجوناً باللفظ ، وعينين زرقاوين ممتلئتين  
عذوبة ، وبشرة صافية ، مشرقة ، ومهاجة » . قدم لها  
رسالة التوصية بعد ان أضاف اليها طلباً مكتوباً بخط  
يده . قرأت الرسالة والطلب وارسلت جان جاك الى  
بيتها لكي يتناول طعاماً بانتظار وصولها .

كانت مدام دي وارانس بروتستانتية، وقد تزوجت في سن مبكرة ، ولم تتوفى في حياتها الزوجية التي دامت نحو اثني عشرة سنة ، حتى أنهتها بالرحيل المفاجيء الى مدينة (إفيان Evian) حيث التجأت الى اميديه ملك سردينيا ، طالبة منه حمايتها ، ومعلمة له رغبتها في اعتناق المذهب الكاثوليكي . امر لها الملك بعاش ، وارسلها المنسيور برناكس ، اسقف أنسي ، الى دير «الزيارة» حيث اقامت بضعة ايام، ثم منحها من سر العباد ؛ حينئذ مكثت في انسي ، بحمي من اقتحام زوجها .

لم تكن مدام دي وارانس لتستطيع ان تحتفظ بجان جاك بالقرب منها ، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر ، لكي 'تعدّه' لجد المذهب البروتستانتى ؛ لذلك قرر المونسنيور برناكس ان يرسله الى ماوى في مدينة توران 'معدّ لتعليم طلاب العباد .

راقت الرحلة جان جاك عبر جبال الألب ولاءمت مزاجه المشرد فكانت له ، مع اثنين من الرفاق ، نزهة حقيقية .

دخل جان جاك ماوى توران في نيسان سنة ١٧٢٨



وفي ٢١ آب ، جحد البروتستانتية ؛ وقد بلغت الصدقة التي جمعوها له ، حسب العادة ، اكثر من عشرين فرنكاً ذهباً ، فمكثن هذا المبلغ روسو من استعادة حريره .

بما انه كان محصوراً منذ اكثر من شهرين ، فقد شعر بسعادة كبرى حينما استنشق نسيم الحرية ، وظن انه اصبح غنياً . بعد ان تمتع بضعة ايام باستقلاله ، رأى ثروته قد ذابت ، فحاول ان يكسب معيشته بممارسة مهنته كمنقش ؛ ولكن ، لم يشغله احد .

ولحسن الحظ ، وجد له الشخص الذي كان نازلاً عنده وظيفه سكرتير عند مدام فرستليس ، لانها كانت قد اصيحت لا تستطيع ان تكتب الا بكل صعوبة ، ولذلك كانت تضطر الى إملاء رسائلها . ولكن هذه السيدة المسنة توفيت بعد ثلاثة اشهر من دخول جان جاك في خدمتها ؛ اما وريث املاكها ، المدعو السيد دي لاروك ، فقد طرد جان جاك على اثر وقوع حادث مؤسف ، وزوده ببعض المال : كان روسو قد استحل أخذ وشاح مفضض كان للسيدة فرستليس ؛ وحينما وجدوا هذا الوشاح مع أمتعته ، لم يشأ ان يعترف

بانه هو الذي اخذه ، بل قال ان فتاة خادمة ، تدعى ماريون ، قد اعطته اياه . وحينما قابلوا بين المتهمين ، انكرت ماريون ، بحزم ، قول جان جاك ، واستقرت التهمة عليه نهائياً . طرد السيد دي لاروك الاثني معاً قائلاً ان ضمير السارق هو الذي سينتقم للبريء . وقد كتب روسو يقول : « لم تذهب نبوءته سدى ، فهي لا تزال تتحقق حتى الآن ، يوماً بعد يوم » .

اصبح لجان جاك من العمر سبع عشرة سنة ، وها هو لا يملك شروى فقير ، ولكنه يسعى بكل قسواه لكي يعمل على كسب معيشته ، ولكي يبلغ الى المقام الذي كان يظن انه جدير به . ثم اتفق له ان التقى كاهناً تقياً ، اصله من مقاطعة سافوى ، يدعى الاب غام ؛ وقد يتسن هذا الكاهن الورع لجان جاك بطلان ايجاد هذا العالم : « لقد قال لي كلاماً ما برح ، طول حياتي ، يتردد في ذاكرتي ، وهو انه : لو كل انسان يستطيع ان يقرأ في قلوب الناس جميعاً ، لكان وجد ان الذين يريدون ان ينحدروا اكثر من الدين يريدون ان يصعدوا » . وهذا الاب غام هو الذي اتخذه روسو ، في ما بعد ، مثلاً لكي يكتب في الجزء الرابع من كتابه

« أميل » ( Emile ) : « اعلان عقيدة النائب الاسقفي  
الساقتوي » ( La Profession de foi du Vicaire  
Savoyard ) .

بعد بذل مساع كثيرة ، توفق روسو الى الحصول  
على وظيفة حاجب عند الكونت دي غوفون ، وهو  
شيخ لطيف المعشر كان يسكن مع والده الاب دي  
غوفون . اهتم هذا الاب بجان جاك وأخذ يسدي اليه  
بنصائح جد مفيدة ؛ ولكن الفتى روسو كان مصاباً -  
كما قال ، هو ، - بداء التجؤل ؛ فحالما التقى احد  
الرفاق القدماء ذاهباً الى سويسرا ، لم يتمالك عن  
الذهاب برفقته .

بدأت الرحلة بالفرح ولكنها انتهت بالكدر : فما  
وصل الرقيقان الى أنسي حتى افترق رفيق جسان  
جاك عنه وتركه لمصيره ، فاضطر الى طلب المساعدة من  
مدام دي وارانس التي قبلته عندها كضيف . كانت  
الايام القليلة التي قضاها عند مضيفته بمثابة غبطة . كان  
جان جاك يدعو مدام دي وارانس « ماما » لقد  
كنت قضيت ، هكذا ، حياتي كلها ، وحتى الأبدية ،  
من غير ان اشعر بالضجر ولو لحظة واحدة .

لم تشأ مدام دي وارانس ان تستبقي عندها هذا  
الفتى ، فادخلته احدى المدارس الاكليريكية ؛ ولكن ،  
بعد اختبار اربعة اشهر ، تحقق ان جان جاك لن  
يصبح ، يوماً من الأيام ، كاهن قرية ؛ وبما انه لم يكن  
يتم الا للموسيقى ، فقد استحصلوا له على وظيفة مساعد  
في جوق موسيقى الكاتدرائية . اضطر رئيس الجوق  
الى ترك المدينة فنصحت مدام دي وارانس جان جاك بان  
يرافقه ؛ وحينما وصل الاثنان الى ليون ، اعترض رفيق  
روسو نوبة اغماء ، وبدلاً من ان يعتني به ، تركه لحاله  
وعاد الى أنسي : لم يكن يرى له من سعادة سوى  
العيش بالقرب من مجيرته ؛ ولكن ، حينما وصل الى  
أنسي ، كانت قد سافرت الى باريس .

بعد بضعة ايام من يأس عميق ، قبل روسو بان  
يذهب الى مدينة فريبورغ ، في سويسرا ، برفقة وصيفة  
لمدام دي وارانس كانت عائدة الى بلادها . ذهب الرفيقان  
مشياً على الاقدام حتى جنيف حيث كان روسو يعود  
للمرة الاولى بعد تغريبه : « لم اكن ذاهباً لأرى احداً ،  
هناك ، ولكنني كاد يُغمى علي عند اجتياز الجسور . . . »  
كان لا بد من المرور بمدينة فيون : « أيمكنني ان امر

بمدينة نيون ولا اذهب فارى والذي ا لو اني تجرأت  
على افعال هذا الواجب المقدس ، لكنت مت مسن  
الندم ... قصدت ، اذن ، ان اراه مها كلفني الامر ...  
آه ! كم من الدموع زرقنا ونحن نتعاقب ! . . . وعد  
جان جاك اباه بان يأتي فيراه ثانية بعد عودته ! ولكنه ،  
حينما وصل الى فريبورغ وأودع وصيفة مدام دي وارانس  
عائلتها ، عاد ادواجه باتجاه لوزان بدلاً من ان يذهب  
الى نيون : « اردت ان اشبع من رؤية تلك البحيرة التي  
كنت اراها تنبسط ، هناك ، على طول مداها ...  
كان من شأن اقل متعة استطيع الوصول اليها  
ان تغريني اكثر من افراح الجنة . »

لم يبق مع روسو درهم واحد ، ولم يكن يتقن  
فن الموسيقى اتقاناً كافياً لكي يستطيع التأليف في هذا  
الفن ؛ ومع ذلك ، فقد ادعى الكفاءة ، والشرف  
قطعة موسيقية ، وعمل على ان تُعزف في احدى  
الحفلات ، فسقطت الى الحضيض ؛ وبالرغم من هذا  
ال فشل ، فقد استطاع ان يحتفظ بتلميذين او ثلاثة يلقنهم  
دروساً موسيقية لمدة بضعة أسابيع ؛ ثم سافر الى  
مدينة نوشاتيل حيث جمع بعض التلامذة ؛ ولكنه لم

يطلب به الامر حتى كتب الى والده يشكو له الفاقة التي  
كان يتخبط فيها ، ويطلب منه مساعدة مالية .

اتفق لروسو ان تعرف الى اسقف يوناني ، وهو  
ارشمندريت من القدس كان يجمع تبرعات للقبر المقدس ،  
فاتخذ روسو سكرتيراً له في تجواله ؛ فزارا مدن  
فريبورغ ، و برن ، وسولور . هنا ألقى سفير فرنسا ،  
موسيو دي بوناك ، القبض على اليوناني الذي لم يكن  
سوى محتال ؛ اما روسو ، فقد تأكد السفير من برامته  
وارسله الى باريس ، بناء على طلبه ، مع رسائل توصية الى  
ضابط سويسري كبير يطلب اليه ان يلحقه بخدمته .  
تأمل روسو خيراً وتصور نفسه ، منذ تلك اللحظة ،  
لابساً بزة ضابط مع قبعة ذات ريشة بيضاء رائعة . غير  
ان قصر نظره كان يقلقه ويخشى ان يكون عائقاً له في  
مستقبله العسكري . قال : « ولكنني كنت قرأت ان  
المارشال شومبيرغ كان ، على رفعة مقامه ، قصير  
النظر ؛ فلماذا لا يمكن للمارشال روسو ان يكون  
كذلك ؟ »

كان الوصول الى باريس عن طريق ضاحية سان  
مارسو خيبة امل أولى ؛ ثم ان الكولونيل غودار الذي

كان روسو حاملاً اليه رسائل التوصية قد عرض عليه  
وظيفة خادم بلا اجرة ؛ اخيراً علم روسو ان ممدام  
وارانس سافرت منذ شهرين . كل ذلك دفع روسو الى  
مغادرة باريس حالاً ، فذهب الى أنتسي مشياً على  
الاقدام .

وصل ، وهو في طريقه ، منهوك القوى ، ضامر  
البطن ، الى بيت احد القرويين ، فبادر هذا الرجل  
الطيب الى انعاشه بشيء من الحليب المقشوط ، ومن  
خبز الشعير ؛ ولكنه ، حينما رأى روسو يلتهم الطعام  
التهاماً ، ذهب الى احد الخايء فأتى بلحم مقدد ،  
وخبز حنطة ، وبيض ، وخرم . قال روسو : « اخبرني  
مضيفي أنه كان يخشى خمره وخبزه خوفاً من المكوس  
والضرائب ، ولو لم يكن يتظاهر بأنه يموت جوعاً ،  
لكان حل به الدمار . ان كل ما قاله لي من هذا القبيل  
لم يكن ليخطر لي على بال ، وقد أثرتني تأثيراً عميقاً  
لا يُحصى . من هنا اضطرم في نفسي هذا السخط العارم ،  
طول ايام حياتي ، على الظلم الذي كان يلقاه هذا الشعب  
المسكين وعلى ظالميه » .

توقف روسو في مدينة ليون حيث جرى له حادث

جعله يقول عن هذه المدينة: انها اكثر مدن اوروبا فساداً،  
غير ان الحظ خدمه بتعرفه على راهب كلفه بأن ينسخ  
قطعاً موسيقية بأجر لا بأس به ، وكان يقدم له افخر  
الاطعمة ، وهذا ما كان روسو بحاجة اليه اكثر من اي  
شيء آخر .

وصلت اليه اخبار عن « المامسا » التي كانت في  
شامبيري فراسلها، وبفضل الدراهم التي بعثت بها اليه،  
استطاع ان يذهب الى ملاقاتها ، وان يجد ، بواسطتها،  
عملاً في دائرة المساحة : « هنا تبدأ » منذ قدومي الى  
شامبيري ، حتى سفري الى باريس في سنة ١٧٤١ ،  
مدة تتراوح بين ثمانية او تسعة اعوام ، كانت حياتي ،  
خلالها ، في غاية البساطة والعذوبة .

احب روسو عمله في شامبيري : « لقد حبب تلوين  
الرسوم الهندسية الي فن الرسم والتصوير » . بيد ان  
الموسيقى هي التي كانت الفن المفضل اليه ، وذلك لانه  
كان يستطيع ان يدرس ويمارس هذا الفن بالاشتراك  
مع مدام دي وارانس .

في تلك الايام ( تشرين الاول سنة ١٧٣٣ ) نشبت  
الحرب بين فرنسا وامبراطور النمسا . تأثر روسو تأثراً



كبيراً بأحداث هذه الحرب وبمسيرها فأكب على قراءة الصحف ، « ولكن بتحيز كلي لفرنسا حتى ان قلبي كان يخفق فرحاً لاقل لنجاح تحمزه فرنسا ، وينقبض المألماً ينزل بها من فشل كأنه نزل بي انا » .

ثابر روسو على ممارسة الموسيقى ونظم حفلة موسيقية شهرية عند مدام دي وارانس ؛ ثم ما لبث ان ترك وظيفته في المساحة لكي يكرس وقته لفنه المفضل ، وقد ساعده شبابه وحسن مظهره على جمع عدد كاف من التلاميذ لكي يستطيع ان يستغني عن وظيفته .

في سنة ١٧٣٤ ذهب روسو الى مدينة بيزانسون حيث أقام زمناً يسيراً عاملاً في التأليف الموسيقي مع الاب بلانشار ؛ وقد وعده هذا الاب بان يستحصل له على مركز في باريس بعد بضعة اشهر .

استند روسو ، بفرح ، الى هذا الوعد ، فعاد الى قرب « الماما » في شامبيري ، حيث تابع درس الموسيقى ، باذلاً جهده في ان يقدم لمدام دي وارانس جميع الخدمات التي يمكنه ان يقوم بها . وقد اتفق له ، آنذاك ، ان أصيب بجراح بينما كان يمارس اعمالاً رياضية ، وقد ظل فاقد النظر اكثر من ستة اسابيع حتى ساءت

صحته واضطر الى الاستجمام في احسدى الضواحي ،  
بالقرب من شامبيري . قررت مدام دي وارانس ،  
عندئذ ، ان تقيم معه في ضاحية ( شارميت Charmettes )  
حيث اعدت لها مكنأ متواضعا على رابية صغيرة  
تشرف على جدول ينساب بين الاعشاب . هنا  
عرف روسو ، في ذات الوقت ، « لذة حب ناشيء ،  
وجالات ، أقل زوالاً ، تشيعها الطبيعة الخالدة » .

بيد ان هذه الايام السعيدة لم تدم . كانت صحة  
روسو ، تسيء اكثر فاكثرا ، وكان يخشى ان يكون  
القلب قد أصيب ، فذهب يستشير احد الاخصائيين في  
مدينة مونيليه . كانت السفارة متمعة لأن روسو حظي  
برفقة سيدة لطيفة المعشر استطاعت ان تنسبه انه  
مريض ، وانه ترك « الماما » في شامبيري .  
لم يعط علاج الاخصائي اية نتيجة فعاد روسو  
من حيث اتى .

بيد ان خيبة أمل قاسية كانت تنتظره عند عودته :  
ان المقام الذي كان يحتله في البيت ، وفي قلب « ماما  
المريزة » ، قد احتله فتى سويسري يدعى « وتترزيد » ،  
مهنته مزين : « كان هذا الفتى ضخم الجثة ، أشقر

اللون ، ذا تكوين جسمي لا بأس به ، ولكنه كان  
مفرطح الوجه ، لا جاذب له ... وكان يدعي انه لم  
يزين سيدة جميلة إلا « وزين » زوجها في ذات  
الوقت .

بالرغم من ان مدام دي وارانس أبلغت روسو ان  
حقوقه في البيت مازالت كما كانت ، أبي ، هو ، منذ  
ذاك الحين ، ان ينظر الى « هذه الماما الغالية على قلبه  
جداً ، إلا بعيني ابن حقيقي » . ولكن ، بقدر ما  
كان نفوذ الفتى السويسري يزداد على مدام دي وارانس  
يقدر ذلك كانت عاطفتها تبرد نحو روسو ، لذلك كان  
إخلاء المكان الحل الوحيد لموقف لم يعد من الممكن  
احتماله .

آنذاك ، عرضت على روسو وظيفة معلم في مدينة  
ليون عند موسيو دي مابلي ، فسافر الى ليون و غير  
أسف على فراق كانت فكرته وحدها ، في ما مضى ،  
تلقى في قلبنا قلق الموت .

بعد سنة من ممارسة وظيفة التعليم ، فضل روسو  
تركها والعودة الى شارميت ؛ ولكن « تلك التي كانت  
تبعث الحياة في كل شيء ، تبدلت ، وماتت تلك

السعادة القديمة الى الابد . بيد ان روسو استطاع ان  
يقنع بالقليل باذلاً كل جهد في كسب ما يمكن من المال  
لكي يساعد به مدام دي وارانس وهي تتخبط في ضنك  
مالي عسير . فكر روسو في ابتكار « نوتات » موسيقية  
جديدة تستند الى الأعداد ، وظن انه سيحصل على  
ثروة من نشر تلك النوتات ، فسافر حالاً الى باريس .

## ٢ - باريس : التأليف الأولى

( ١٧٤١ - ١٧٥٠ )

سافر روسو الى باريس في خريف سنة ١٧٤١  
وسكن بالقرب من جامعة السوربون ، وتمكن بواسطة  
توصيات به ، من إعطاء بعض الدروس الخاصة . ثم  
قدمه بعض معارفه الى السيد دي ريومور الذي قبل  
بان يعرض مشروعه الخاص بالنوتات الموسيقية على  
المجمع العلمي . غير ان هذا المجمع لم يجد طريقة روسو  
هذه جديدة ، ولا مفيدة .

بالرغم من ان روسو تمكن سريعاً ، بفضل العلاقات  
التي اقامها ، من مخالطة ألمع ادباء باريس ، مثل مدام  
(دوبان Dupin) ومام دي بروجي (Broglie) وماريفو  
(Marivaux) وفونتنيل (Fontenelle) وديدرو (Diderot)

النخ . فان الحظ ، مع ذلك ، لم يبسم له سريعاً ،  
ولكنه لم يأبه لذلك ، فكان يحب النزومة في حديقة  
قصر اللوكسمبورغ مطالعاً اشعار فرجيل ، او يقضي  
اياماً كاملة في لعبة الشطرنج ؛ مع ذلك لم يكن ينسى  
الموسيقى ، بل وضع ، منذ ذاك الحين ، اول تصميم  
لمفتاتة : « عرائس الشعر المغناجيات »  
( Les Muses galantes ) .

عرضت مدام دي بروغني على روسو ان تساعدته  
واستحصلت له على وظيفة سكرتير لدى سفير فرنسا في  
البندقية . تردد روسو ، اولاً ، ثم قبل ، اخيراً ، ولكن  
من غير حماسة .

كان روسو يود ان يذهب الى البندقية عن طريق  
(جبل سني Mont-Cenis) ، لكي يزور « الماما » في  
طريقه ؛ ولكنه اضطر ، لشح الدراهم في جيبه ، الى  
ان يعبر نهر الرون ويقطع من مرفأ طولون .

حال وصوله الى البندقية بدأ عمله . كان السفير ،  
موسيو دي موتيفو ، رجلاً عادياً وذا فهم محدود . شعر  
هذا السفير ، بادية ذي بدء ، بالجهود التي يبذلها  
سكرتيره في سبيل خدمة السفارة ، ولكنه لاحظ ،

شيئا فشيئا ، ان الاوامر التي كان يصدرها اليه لم تكن  
تتفد دائما ، وان هذا السكرتير يتبع آراءه الخاصة في  
عمله ، لذلك حاول ان يقلم اظفاره ؛ غير ان روسو لم  
يتردد ، آنذاك ، في طلب صرفه من الخدمة ، والعودة  
الى فرنسا عن طريق جنيف ، ماراً بمدينة نيون حيث  
زار والده .

عند عودته الى باريس ، وسكنه مجدداً في فندق سان  
كنتان ، ظن انه يستطيع ، في الهدوء الذي يسود هذا  
الفندق ، ان يُتم مغناته . « كان ينتظرنى ، في هذا  
الفندق ، العزاء الحقيقي الوحيد الذي بعثت  
به السماء الي في عمرة شقائي ، والذي ساعدني  
على احتمال الحياة » . كانت ملكية الفندق قد انتقلت  
الى سيدة اورليانية ، وكانت هذه السيدة قد استخدمت  
فتاة من اوليان ، تدعى تيريز لو قاسور ، لكي تعتنى  
بالملابس وبالبياضات ، وتقوم بأود والديها . كانت  
تيريز حيية ، ساذجة ، لا هم لها سوى القيام بعملها .  
اعترفت الى روسو بزلة كانت قد اقترفتها في اول  
صباحها ؛ غير ان روسو لم يهتم للامر ، من حيث هو  
زلة ؛ لم يكن يبحث الا عما يتلهم به .  
حاول ، عبثاً ، ان يعنى بتثقيف تيريز ، لانها لم تكن

'تحسن الكتابة ، ولا القراءة ، ولا الحساب . مع ذلك ، زعم روسو انها كانت ذات رأي سديد في الظروف الصعبة . كانت تيريز مخلصه لروسو ، لكن والدتها كانت تسعى الى استغلاله حتى اضطرته ، اخيراً ، الى القيام بأود سبعة ، او ثمانية اشخاص .

لكي يفتح امامه بعضاً من ابواب الرزق ، عاد يتردد على معارفه ، وبمضى من مسيو ريشليو أقيمت حفلة موسيقية عُزقت فيها ، للمرة الاولى ، مقاطع من 'مغناة روسو' عرائس الشعر المغناجات ، ولكن دون نجاح يذكر . مع ذلك ، 'عهد اليه في تنقيح المغناة التي كان فولتير قد نظم اشعارها ، وكان الموسيقي رامو ، قد وضع موسيقاها ، وعنوانها ' اميرة ناغار ، فاصبح عنوانها ' أعياد رامير ' . لم يشأ روسو ان يمس اشعار فولتير من دون ان يحصل على موافقته ؛ فكتب اليه بهذا الخصوص واستلم منه جواباً بالغ اللطف والجمالة . هذا كان بدء العلاقات بين هذين الرجلين اللذين اصبحا ، في ما بعد ، عدوين لدودين .

أنفق روسو ، سريعاً ، الميراث القليل الذي عاد اليه عن والده ، واضطر الى تكريس كل وقته لكي يحصل

على ما يقوم به بأود تيريزه . تقرب من مدام دوبان (Dupin) ومن صهرها مسيودي فرانكوي الذي اتخذه مكرتيراً خاصاً .

رافق روسو ، في اواخر صيف سنة ١٧٤٧ ، مدام دوبان الى قصر شينونسو في تورين حيث قضى ، كما يقول ، اياماً ممتعة : « بينما كنت ، انا ، أسمن في قصر شينونسو ، كانت تيريزي المسكينة تسمن ، ايضاً ، في باريس ، ولكن سمها كان من نوع آخر ، وحينما عدت ، وجدت النسيج التي كنت قد بدأت يكاد يكون جاهزاً ، بعكس ما كنت انتظر » . كيف السبيل الى تربية ولد ، مع ضالة ما كان يكسبه من دراهم ؟ قال : « حدثت ، في تفكيري ، حذو ما كنت اشاهد من أناس جد محبوبين ، وجد طيبين » . كان اولئك الناس الطيبون هم الذين يلقاهم روسو على مائدة مدام لاسيل ، وهي زوجة خياط كانت تقدم على مائدتها اشكالا من الطعام غير فاخرة ؛ ومع ذلك ، كان يزورها اناس من طبقة عالية : « وحسنا نمجن عندها كثيراً ، ولكن من غير غلاظة » .

بالحقيقة ، كان روسو يخشى ان تبليبل حياته بمجيء هذا الطفل ؛ لذلك بادر الى ايداعه مؤسسة الاولاد



اللقطاء . رزق روسو خمسة اطفال وكان كل مرة  
يبعث بالطفل الى مؤسسة الاولاد اللقطاء .

لا شك في ان روسو قدم ، في ما بعد ، على ما فعل ،  
وذاق وخز الضمير ؛ فقد قال في رسالة بعث بها الى  
مدام لوكسمبورغ : « ان الافكار التي اثارتها هفوتي في  
نفسي دفعتني الى كتابة « بحث في التربية » ، حيث  
تجددني ، في الجزء الاول ، مقطعا بذلك دلالة كافية على  
ذلك . . . وإليك هذا المقطع : « ان الرجل الذي لا  
يمكنه ان يقوم بواجبات الابوة لا يحق له ان يصير اباً .  
وقد كتب في احد أجزاء كتابه « اميل Emile »  
يقول : « لا فقر ، ولا اشغال ، ولا حياة بشري ، ولا  
شيء من مثل ذلك يستطيع ان يعفي الاب من ان  
يكفي اولاده معاشهم ، ومن ان يقوم بتربيتهم هو  
بنفسه . . . وكذلك في كتابه « تأملات متزهة منقود ،  
(Réveries d'un Promeneur solitaire) شعر القارئ  
بالمراة التي كانت تبعثها في نفس الكاتب ذكرى هفوته  
تلك .

كانت وظيفة روسو كسكرتير تتيح له التعرف  
بنخبة مجتمعه . فقد تعرف بمدام (ديبيناي D'Epinaay)

بواسطة مسيو دي فرانكوي ، وكانت هذه السيدة قد  
اخذت تحت حمايتها (غريم Grimm) و(دوكلو Duclos )  
ثم اهتمت بامر روسو وبذلت جهدها في سبيل جذبته  
الى محيطها .

كان روسو ، منذ عودته الى باريس ، قسداً وثق  
عري الصداقة مع ديدرو . كان الصديقان يتشابهان  
سناً وضمناً عيش ؛ وكان كونديثاك ، ودالامير ،  
يترددان عليها في أغلب الاحيان . طلب ديدرو مسن  
روسو ان يتعاون معه في تحرير « دائرة المعارف » .  
ذهب روسو ، ذات يوم ، يزور صديقه ديدرو الذي  
كان مسجوناً ، في سجن (فنان Vincennes) بتهمة نشر  
مقالة مخلة بالامن ؛ وبينما هو في الطريق ، قرأ في مجلة  
(مركوردي فرانس Mercure de France) ان مجمع  
دييون العلمي دعا الكتاب الى المباراة في معالجة  
السؤال التالي : « هل أسهمت النهضة العلمية والفنية في  
إفساد الاخلاق ام في إصلاحها ؟ » قال روسو « حالماً  
قرأت هذا السؤال رأيت كأني أصبحت رجلاً آخر  
وفي كون آخر ؛ وحينما وصلت الى فنان كنت في  
اضطراب نفسي يشبه الهذيان . لاحظ ديدرو اضطرابي

فأخبرته عن السبب ، ثم قرأت له ما كنت قد كتبتة ،  
في هذا الموضوع ، على لسان القنصل الروماني فابريسيوس  
(Fabricius) ، وكنت قد كتبتة بالقلم الرصاص تحت  
شجرة السنديان . أشار علي ديدرو بالمضي في مشروعني ،  
وبالتعمق فيه ، وبدخولي المباراة . عملت بإشارته ،  
ومنذ ذلك الحين كتبت صك شقائي بيدي . ان جميع  
البلايا التي احاقت بحياتي ، في ما بعد ، كانت نتيجة  
حتمية لتلك اللحظة التي ارتكبت فيها ذلك الضلال .

كتب روسو موضوع المباراة المقترح تحت عنوان :  
« خطاب في العلوم والفنون » وذلك أثناء ليالي أرق  
محمومة .

يبين روسو في خطابه ان تقدم العلوم والفنون يفضي  
الى إفساد الاخلاق .

أبلغ روسو ، في السنة التالية ( 1750 ) ، ان خطابه  
نال الجائزة ، وحينما نشر ديدرو هذا الخطاب أثير  
حوله جدال حامٍ . رد روسو على بعض منتقديه وأهل  
البعض الآخر . دخل الجدل الملك ستانيسلاس نفسه ،  
وقد رد روسو على هذا المنتقد الكبير ردّاً أفحمة به  
حتى ان الملك قال بعد هذا الرد ، كما يُروي عنه :

« لقد وصل لي حقي ، وسكت » .

٣ - من « خطاب في العلوم والفنون »

حتى المنفى

( ١٧٥٠ - ١٧٦٢ )

وثق روسو من نفسه بعد نجاح « خطابه » وقد  
كان حتى ذلك الحين يشك في قدرته الكتابية . كانت  
افكار البطولة والفضيلة التي اثارها في نفسه مطالعته  
الاولى وإيجاءات والده قد اختمرت في ذهنه ، وبذلك  
قال : « لا اجد شيئاً اعظم واجمل من ان يكون  
الانسان حراً وفاضلاً ، متعالياً فوق الغنى وفوق للرأي  
العام كافياً نفسه بنفسه » .

لذلك قرر ، اول ما قرر ، ان يستغني عن وظيفته  
كسكرتير عند مسيو دي فرانكوي ، وان يعود  
الى ممارسة مهنته كناسخ «نوتات» موسيقية . أما ، وقد  
اصبح ، بين ليلة وضحاها ، كاتباً شهيراً ، ففسد انحال  
عليه الزوار انهيالاً يستغرق كل وقته .

ان هذا الاتزاع الذي سببه له شهرته ككاتب  
اضطرته الى الخلل بقواعد آداب المعاشرة . قال :  
« حلامي طبيعي الخجول على ان اكون ساخراً ، فكنت

اتظاهر باحتقار التهذيب لاني لم اكن اعرف ان  
امارسه .

لم يفهم صديقه ديدرو وغريم سلوكه هذا ، وقد  
نسباه الى الداء الذي كان يعانيه روسو منذ امد طويل .  
حاولا ان يقنعاها بالمعدل عن هذا السلوك ، ولكنها  
زاداه سخطاً .

كان حنق روسو على مجتمعه يفارقه أحياناً : لقد  
رضي بان يزور مواطنه الجوهري موسار الذي اعساده  
عنده ، ومعه ، ذات يوم ، ذكريات عن الموسيقى الايطالية .  
شرع منذ ذاك اليوم ، يعمل ، بحماسة ، في الحقل المسرحي  
وكتب مسرحيته «عراف القرية» .

مثلت هذه المسرحية امام البلاط في فورتنبلو فلفتت  
الانظار ، مجدداً ، الى كاتبها ، حتى ان الدوق دومون  
(d'Aumont) اراد ان يقدمه الى الملك ، ولكن روسو  
رفض . لانه ديدرو على هذا الرفض وذكّره بما يجب  
عليه تجاه تيريز ووالدتها ؛ وقد ساند غريم ما قاله  
ديدور . ظن روسو ان صديقيه يتواطآن ضده مع  
امراته . من هنا اصل صدع الصداقة بينه وبين هذين  
الرجلين .

في ذات الوقت الذي كانت تتمثل فيه مسرحية  
« عراف القرية » ، كان المسرح الفرنسي يقدم « نرسيس »  
( Narcisse ) ، وهي مسرحية كان روسو قد كتبها  
منذ زمن ولم يكن ينظر إليها بعين الرضى مع ذلك ،  
قام بطبعها ونشرها ، في ما بعد ، مع مقدمة اودعها  
كثيراً من الافكار التي كانت قد عبر عنها في مقاله  
« خطاب في العلوم والفنون » .

في تلك السنة ( ١٧٥٢ ) ، وللمناسبة وصول جـسـوق  
ممثلين ايطاليين الى مسرح الأوبرا ، كتب روسو رسالة  
في الموسيقى الفرنسية « قال فيها ان اللغة الايطالية هي  
أصلح اللغات للغناء والموسيقى . في تلك الاثناء ، اقترح  
مجمع ديجون العلمي ، لمباراة سنة ١٧٥٣ ، الموضوع التالي:  
« ما هو اصل التفاوت بين الناس وهل يطابق هذا  
التفاوت سثة الطبيعة ؟ » . كانت روسو قد تطرق  
الى هذا الموضوع في « خطابه في العلوم والفنون » ،  
فأخذ يعن التفكير فيه مجدداً ، وترك باريس الى ضاحية  
سان جرمان لكي يكون على اتصال بالطبيعة ،  
ويرتاح من ضجيج باريس ، ويستجم في ظل السكينة .  
لم يطل به الامر حتى قرر الانتقال الى جنيف

برفقة تيريز واحد مواطنيه المدعو غوفكور .

كانت تيريز لازمة له ، هناك ، لكي تعني به ، لأنه كان يشكو دائماً من اوجاع يسببها له داء في مرارته . لم يشأ روسو ، لدى مروره بمدينة ليون ، إلا ان يزور « ماما » الحبيبة ؛ ولكن باي شكل ! قال : « رأيتها ... باية حال ، ياربي ! وبأي تشويه ! ... يا له من ألم خرق قلبي ! » . لم يكن روسو ليستطيع ، آنذاك ، ان يسدد الديون التي كانت قد ارهقت كاهل مدام دي وارانس ، ولكنه كان يتمنى ، كما قال ، لو رضيت بالعيش معه لراحة بقية ايامها ؛ ولكنها رفضت .

جاء روسو الى جنيف مدفوعاً بتشويق مواطنيه غوفكور ، ومتحمساً للنظام الجمهوري في بلاده . احتفي به ، هناك ، احتفاء بالغاً ؛ أما هو ، فكان « خجلاً من ضياع حقوقه كمواطن لاعتناقه المذهب الكاثوليكي وتنكره لمذهب اجداده ، لذلك قرر العودة ، جهاراً ، الى مذهبه القديم » ورجوعه الى البروتستانتية ، استعداد حقوقه كمواطن في جنيف ؛ ثم على إلحاح من اصدقائه ، قرر الإقامة ، نهائياً ، في مدينته مع رفيقة العمر تيريز .

بعد هذا القرار ، شاء ان يتجول ، بعض الوقت ، غير مهم الا بالتنزه والتلهي .

بيد انه عاد ، بعد شهر اربعة ، الى باريس ، في تشرين الثاني ، مع قصد الرجوع الى وطنه في الربيع الذي يلي .

فكر روسو ، بعد نشر « خطابه في التفاوت بين الناس » ، بان « إهداء هذا الخطاب الى جمهورية جنيف » من شأنه ألا يسر مواطنيه . وبالفعل ، فقد جلب له هذا الاهداء « اعداء في المجلس وحساداً في البورجوازية » . غير ان مدام ديبيناي وضعت تحت تصرفه مسكناً يُسمى الارميتاج ( l'Ermitage ) كانت قد بنته في غابة مونغورانسي (Montmorency) بقصد إسكان روسو . هذا الكاتب الشهير ، بالقرب منها .

بعث روسو بنسخة من « خطابه في التفاوت بين الناس » الى فولتير فأجابه هذا الاخير يقول : « ... لم يستخر احد فكره بقدر ما سخرته ، انت ، لكي تجعلنا شبين بالبهائم ؛ يشتهي الانسان ، حينما يقرأ خطابك ، ان يمسي على أربع قوائم » .

عمل روسو على تنظيم حياته بعد اقامته في الإرميتاج



في ربيع سنة ١٧٥٦ : فيواصل ، في الصباح ، مهنته  
كناسخ نوتات موسيقية ، ويقضي بقية يومه متنزهاً ،  
وقد أصبحت غابة مونثورانسي مكتباً فسيحاً لقلمه .  
كان روسو قد شرع بتأليف عدة ، أهمها : «مؤسسات  
سياسية » ، وهو مؤلف لم يطبع ، ولكن قسماً منه  
أصبح ، في ما بعد : « العقد الاجتماعي »  
(Le Contrat social) .

وكانت عائلة الأب سان بير قد أودعت روسو  
مخطوطات هذا الكاهن وعهدت اليه في انتخاب  
مقطوعات منها .

وكان روسو يريد ، في ما يريد ، كتابة مؤلف تحت  
عنوان «الاخلاق الحسية» او «مادية الفيلسوف» ، وهو مؤلف  
كان من شأنه ، على زعم روسو ، ان يكون « احد أهم  
المؤلفات التي يمكن اهداؤها الى البشرية » ؛ وبالإضافة  
الى كل ذلك ، كان يفكر في طريقة تربوية لتنشئة حفيد  
مدام دو بيان .

كانت جميع المؤلفات مواضيع تفكير لروسو في  
زمناته ، لانه لم يكن يستطيع ان يفكر الا وهو يمشي .  
قال : «لا يمشي رأسي الا مع رجلي » . اما في ايام الشتاء ،  
فكان يشغل ، داخل مكتبه ، في « قاموس الموسيقى »

الذي لم يُطبع الا في سنة ١٧٦٧ .

كان الوقت الذي قضاه روسو في الارميتاج من  
أخصب اوقات حياته في التأليف ، ولكن الارميتاج  
لم تكن الشارميت : كانت تيريز ، هناك ، مع أمها  
المزعجة ، ولا سيما حينما كانت تضيف الى هذا الازعاج  
متاعب لا تُحتمل بواسطة المبالغ التي كانت تستدينها باسم  
ابنتها . وكانت مدام ديبيناسي ، من جهتها ، لا تبرح تدعو  
روسو اليها لكي تستشيريه في أمر ما تكتب .

ولكي ينسى روسو متاعبه ، كان يقضي ايامه ،  
ما استطاع الى ذلك سبيلا ، بين افكاره وأحلامه ؛  
وفي تلك الظروف بعث الى فولتير « برسالة في العناية  
الالهية » ، ووضع تصميم « هيلوييز الجديدة »  
(La Nouvelle Héloïse)؛ وفي تلك الايام التقى مدام دوتدو  
(d'Houttedot) في احدى نزواته وسط الغابة ، وكانت  
مدام دوتدو ابنة حمي مدام ديبيناسي . « كان الحب ،  
هذه المرة ، حقيقياً » ، ولكنه كان حياً عذرياً  
« افلاطونياً » بالرغم من الرسائل المحمومة ، الملتهبة ،  
والتي كانت رسائل سان برو (Saint-Preux) الى جولي  
(Julie) في هيلوييز الجديدة تبدو كأنها اجوبة لها ،

وروداً عليها .

لم يكن روسو يخفي عاطفته نحو مدام دوتدو ، بل كان يجهر بها علانية ، وقد آلم هذا الجهر مدام ديبيناى ، وحينما طلبت اليه هذه الاخيرة مرافقتها الى جنيف رفض روسو طلبها ، ومنذ ذلك الحين وقعت القطيعة بينها ؛ وفي ذات الوقت زاد النفور بينه وبين صديقيه القديمين ديدرو وغريم بعد حوادث تتعلق بذات القضية .

اضطر روسو الى ترك الارميتاج في فصل الشتاء ( كانون الاول سنة ١٧٥٧ ) فانتقل الى «مون لوي» بالقرب من قصر مونكورانسي ؛ وقد اغتنم فرصة هذا الانتقال الاضطراري لكي يقصي عنه والده تيريز ، ثم اكب على الشغل بجمارة لكي يسكتن به آلامه النفسية واوجاعه الجسدية المتفاقمة .

كان دالامبير قد كتب في « دائرة المعارف » مقالة عن جنيف لم تحظ برضى اهل هذه المدينة ؛ فقد مدحها ، بادىء ذي بدىء ، ثم لامها ، بايحاء من فولتير ، على نبذها المسرح . احتج قسس المدينة على هذا الانتقاد وحرروا اعترافاً بايمانهم . سكت دالامبير ؛ بيد ان روسو كتب في ( شباط سنة ١٧٥٨ ) « رسالة الى دالامبير في

التمثيل ، بين فيها فساد هذا النوع من الملامي ، وقال  
عن هذه الرسالة انها الكتابة الاولى ، من بين كتاباته ،  
التي ذاق فيها متعة العمل .

بادر المارشال دي لوكسمبورغ وزوجته ، اللذان  
كانا يسكنان قصر مونورانسي ، الى عرض ضيافتهما  
على جارهما روسو فقبلها هذا فوراً . اجل ، لم يتردد  
روسو ، وهو رجل الطبيعة الذي يحتقر مخالطة الناس ،  
ولا سيما العظماء منهم ، في قبول هذه المنة ، وذلك  
بتناقض غريب اتاه مراراً عديدة في حياته ؛ لكن  
كتب ، في ذلك الحين ، أهم مؤلفاته ، فأكمل  
« هيلوييز الجديدة » ونشر « العقد الاجتماعي » و « إميل » .

صحيح ان « العقد الاجتماعي » لم يُترجم كبرى  
في فرنسا ، ولكن « إميل » جلب على كاتبه سخط  
المتدينين والملحدين ، المسيحيين والفلاسفة ، معاً ، بالرغم  
من تناهشهم فيما بينهم « كالدئاب الجائعة » .

#### ٤ - المنفى والأيام الاخيرة

( ١٧٦٢ - ١٧٧٨ )

لم يمضِ عشرون يوماً على نشر كتاب « إميل » في  
هولاندا حتى حكم عليه برلمان باريس بالحرق ، وحكم

على كاتبه بالسجن ( حزيران سنة ١٧٦٢ )؛ ثم بناءً على نصيحة اللذين أخذاه تحت حمايتها، قرر روسو الهرب، فأشير عليه باللجوء الى انكلترا؛ ولكنه فضل الذهاب الى سويسرا « بلد الحرية » ، واتى مدينة ايفردون السويسرية . بعد اربعة ايام من قدومه الى هذه المدينة، حكم مجلس جنيف على كتابيه معاً وحذت مدينة برن حذو جنيف . قال روسو : كان قد أثير ضدي ، في كل اوروبا ، صراخ لعنة هائج لم يسبق له مثيل .

غادر روسو ايفردون ولجأ الى مدينة « مونتيسه - ترافير » الصغيرة بالقرب من مدينة نومشاتيل الواقعة تحت حكم ملك بروسيا ، فريدريك الثاني ، ثم تبعته تيريز فاقاما هناك بضعة اسابيع بسلام .

بين رئيس اساقفة باريس ، كريستوف دي بومون، في رسالة رعائية ، النقاط التي يناقض بها روسو ، في كتابه « إميل » ، العقائد الكاثوليكية ، فرد عليه روسو برسالة يقول فيها : « اني اتخذ الكتاب المقدس وعقلي كالتاعدتين الوحيدتين اللتين ابني علي اسمها اعتقادي ؛ اني ارفض سلطان البشر ولا اخضع لهما

يعتقدونه الا يقدر ما ارى فيه من حقيقة .

لم يصادق القسم الاكبر من جنيف على هذه الرسالة ، بالرغم من كونها 'كتبت للذود عن البروتستانتية' ، وقد نشر المدعي العام ترونشن ، مصدراً حكمه بوضوح ضد روسو ، « رسائل مكتوبة من الريف » لكي يدعم موقف اصدقائه . رد عليه روسو بتسع « رسائل مكتوبة من الجبل » خصص الست الأولى منها بالدفاع عن نفسه ؛ اما في الاربع الأخرى ، فقد هاجم دستور جنيف ووصمه بالانحراف عن روح الحرية .

في هذه الاثناء ، ظهرت مقالة انتقادية عنيفة في اواخر سنة ١٧٦٤ ، عزاهما البعض الى فولتير ، اثار الرأي العام ضد روسو وجعلت بقاءه في « موته » مستحيلاً ، وقد هاجم الفلاحون ، في احدى ليالي ايلول ، بيت روسو بالحجارة .

لجأ روسو الى جزيرة سان بيير الواقعة في وسط بحيرة « بين » ، ولكنه أنذر بترك الجزيرة . غادر روسو سويسرا وتوقف في ستراسبورغ حيث استقبل بحفاوة ، ولكن احد اصدقائه اقترح عليه السفر الى

انكلترا حيث يستطيع ان ينعم بحرية تامة ويلتقي  
الفيلسوف دافيد هيوم صديقه .

وصل روسو الى لندن في كانون الثاني سنة ١٧٦٦  
فاستقبله هيوم وأسكنه ضاحية صغيرة بالقرب من العاصمة  
تدعى تشيسويك حيث يمكنه مواصلة كتابة «اعترافاته» .  
ثم قدم له احد اصدقاء هيوم بيتاً في «دريبيشير» على بعد  
بضعة اميال من لندن فقبل بسرور . ولكن ، لسوء  
الحظ ، بدأ روسو يتصور انهم أغروه بالجمي ، الى انكلترا  
لكي يحققوه ويسخروا منه ، وأخذ يتهم هيوم بفض  
رسائله ؛ وقد أسهمت مقالات انتقادية أخرى أوحاها  
او كتبها فولتير في تفاقم نوبة الجنون التي اعترت روسو ،  
آنذاك ، وجعلته يعتقد ان الجميع يضطهدونه . تبادل  
مع هيوم رسائل عنيفة اللهجة حتى اصبحت الخصومة  
بينها خيراً شائعاً . لذلك قرر روسو ، في نيسان سنة  
١٧٦٧ ، ان يترك انكلترا ويعود الى فرنسا ضيفاً على  
الماركيز دي ميرابو والد الخطيب الكبير الشهير . ثم لم  
يلبث ان ذهب الى مقاطعة النورماندي ضيفاً في قصر  
تري ، بالقرب من جيزور ، على الامير دي كونتي الذي  
كان روسو قد تعرف به خلال اقامته في جوار

المارشال دي لوكسمبورغ . اما تيريز فلم تفارقه منذ سفره الى سويسرا ، ومن المرجح ان تكون قد دفعت روسو المريض ، والمضطهد ، على زعمه ، بما لها من النفوذ عليه ، الى الاسراع في مغادرة انكلترا ؛ ولكن من المؤكد انها هي أرغمته على مغادرة تري .

شاء روسو ان يذهب الى مقاطعة الدوفينه ، وان يزور قبر مدام دي وارانس ، ثم أقسام ، اخيراً ، في بورغوان . هنا ، وامام شاهدين ، أعطى روسو تيريز ليفاشور ، اسم زوجته وحالتها ، معلناً استحالة قسم عرى العلاقة التي ظلت تربط احدهما بالآخر منذ عشرين سنة . بيد ان مناخ بورغوان لم يلائم حالته الصحية فذهب يقيم في مزرعة موكين المرتفعة حيث بقي حتى نيسان سنة ١٧٧٠ .

ثم عن له ان يعود الى باريس لكي يفحم اعداءه ، وكان الدوق دي شوازيل ، وزير الخارجية ، قد سمح له بالرجوع الى العاصمة بعد ان كان البرلمان قد اصدر قراراً بمنعه من دخولها . اراد روسو ان يقرأ في النوادي مقاطع من « اعترافاته » لكي يبرد بها نفسه . كانوا يصغون اليه ، ولكن بلا مبالاة . وبما ان « الاعترافات » عجزت عن تنقية الجو الخائق الذي كان يستنشقه رجل حساس



كروسو ، فقد لجأ الى كتابة «محادثات» اخذ الدفاع فيها عن روسو احد المتحدثين ، ولكن من غير جدوى ، ولكي يحفظ روسو مخطوطته من الضياع ، اودعها شاباً انكليزياً كان ماراً بباريس وعهد اليه في نشرها بعد موته .

اضطر روسو الى ممارسة مهنته القديمة كمناسخ نوتات موسيقية لكي يستطيع ان يعيش ؛ وكان قد سكن شارع بلاتريير في طابق رابع قبالة دار البريد ضمن غرفة متواضعة حيث كان برناردان دي سان بيير يأتي لزيارة صديقه روسو غالباً . وصف برناردان دي سان بيير روسو يقول : « كان جان جاك رجلاً نحيفاً ، معتدل القامة ، وكانت احدى كتفيه تبدو اكثر انخفاضاً من الاخرى إما لعاهة طبيعية وإما للوضع الذي كان يتخذه وهو يكتب ، وإما ، اخيراً ، لان السنين كانت قد حنت ظهره وهو ، آنذاك ، في سن الرابعة والستين . مع ذلك ، كانت بنيته متناسقة . كان اسمر اللون ، وردي الوجنتين ، جميل الفم ، قشاني الانف ، مستدير الجبين ، عالي الجبهة ، ناري العينين . كانت تقاطيع وجهه التي تنحدر من المنخرين نحو طرفي الفم ، والتي تتميز بها السياء ، تعبر عن إحساسية بالغة يخالطها شيء

من الألم ... كان الى جانبه بيانو صغير من الطراز القديم ينقر عليه ، من حين الى آخر ، بعض الالمان ؛ وكان كل اثاث غرفته يتألف من فراشين قطنيين ، وبين بعض البسط ، يضلح كل ذلك اللونان الازرق والابيض ، مع خزافة صغيرة ذات ادراج ، ومنتضدة ، وبعض الكراسي ... كان هناك ككناري يفرد في قفص معلق بالسقف ، وعصافير دوري تأتي فتأكل الخبز المنثور على النوافذ المفتوحة من ناحية الشارع ، وكانت تنمو على نوافذ المدخل في صناديق خشبية وأوانٍ خزفية مزروعات شتى ثابتة كما يطيب للطبيعة ان تبذرهما .

في اغلب الاحيان كان روسو ، بعد ان ينتهي من عمله ، يذهب برفقة برناردان دي سانت بيير يتنزه في غابات سان كلو أو على منحدرات فيل داقري . ففي ذلك الوقت كتب روسو « تأملات متنزه منقرده » حيث نجد بعض أروع الصفحات التي دعيها قلبه .

ساعت حالته الصحية منذ عودته الى باريس فقدم له الماركيز دي جيراردان ، وهو احد المعجبين به ، مسكناً في قصره في ايرمونفيل بالقرب من سنليس ، حيث حل روسو مع تيريز . وكان يبدو ان الاقامة من هدوء

الريف ، وطيب الهواء ، وجمال الطبيعة قد حسنت صحته ، وفجأة ، دامتة الوفاة في الثاني من تموز . كان قد دعا تيريز اليه في الصباح وقال لها : « ارجوك يا زوجتي العزيزة ان تفتحي لي النافذة لكي اتمتع مرة أخرى برؤية الطبيعة الخضراء . ما اجملها ! وما اصفى وأبهى هذا النهار ! » .

قبل ان وفاته لم تكن طبيعية ، فتحدث البعض عن انتحار بالرصاص ، وزعم البعض الآخر ان تيريز شذخت رأسه في ساعة غضب . غير ان رفاة التي نُبشت سنة ١٨٩٧ بحضور شهود رسميين دلت على عدم وجود ثقب او كسر في الجمجمة .

'يرجّح ان الوفاة حصلت من تسمم في الدم ناتج عن مرض مزمن في المرارة رافق روسو طول حياته . 'دفن روسو في جزيرة صغيرة تدعى جزيرة الحور وسط حديقة ايرمينونفيل .

قررت حكومة ( الكونفانسيون la Convention ) سنة ١٧٩٤ نقل رفات روسو باحتفال رسمي الى (البانثيون Panthéon) حيث كانت رفات عدوه فولتير قد نقلت منذ ثلاثة اعوام .

كان الاحتفال بنقل رفات روسو في ذلك العهد ذا دلالة سياسية كبرى . مشى الموكب من قصر التويلري الى البانتيون مؤلفاً من فئات ترمز كل فئة منها الى كتاب من كتب روسو : كان أمام اعضاء الحكومة حاجب يحمل « العقد الاجتماعي » وكانت أمهات مع اولادهن يرمزون الى كتاب « إميل » ، وموسيقيون يعزفون الحاناً من اوپريت «عتراف القرية» ، وأطباء من الثمر ، وباقات من الزهور ترمز الى حب الطبيعة ، ورهط من سكان مدينة جنيف يُذكر بالمدينة التي رأى روسو فيها النور .

هذه هي حياة الفيلسوف الذي قيل عنه بحق « انه هو الذي كان سبب الثورة الفرنسية » .

## فلسفته

اولاً - لكل فيلسوف اتجاهات فلسفية خاصة يرجع اليها ، دائماً ، فكأنها اسس عقيدته ؛ يوحي اليه قسماً من هذه الاتجاهات مزاجه الفطري ، والقسم الآخر تربيته بالنسبة الى وسطه المادي ، والذغني ، والاخلاقي . تلعب هذه الاتجاهات الخاصة دوراً رئيسياً في انتقاء الحقائق الثابتة ، والمناهج المتبعة : قد تُطبَّق هذه الملاحظة على جان جاك روسو اكثر مما تُطبَّق على غيره ؛ لذلك سنحاول ، لكي نفهم روسو ، ان نستخرج ، حالاً ، حقائقه الاولى .

لتذكر ، أولاً ، هذه العبارة الشهيرة التي أعلنتها :  
«أفضل ان اكون رجلاً متناقضاً على ان اكون رجلاً متعصباً»  
منقاداً . . يعني هذا ان روسو لن يهتم ، اطلاقاً ، للرأي  
الذي يأخذ به سواد البشر ويزعمون انه الرأي الأصح .  
فالشيء الوحيد الذي يهتم له هو الحقيقة ، والحقيقة فقط .  
فان طابقت الحقيقة رأي الاكثية ، فلا أحسن !  
وإلا ، فان روسو سيجهر بها أمام الملا ولو أدى به هذا  
الجهر الى إغضاب أولئك الذين يزعمون انهم فلاسفة .  
انه لموقف جميل يقفه روسو شرط ألا يتحول هذا  
الموقف الى قول ما لم يقفه احد ، والى اللعان بقول ما لم  
يكن ينتظره احد . لقد اتهم روسو فلاسفة عصره  
بالوقوع في هذا الخطأ . فهل تجنبه هو ، دائماً ؟

الاتجاه الثاني والأهم هو قوله : « اذكر ، دائماً ، ان  
عدم المعرفة لم يقترف شراً البتة ، وأن الضلال هو وحده  
الذي يقود الى الشر ، وان الانسان لا يضل بما لا يعرفه ،  
ولكن بما يظن انه يعرفه » . جميع الفلاسفة «متكبرون»  
متشبثون بأرائهم وبمعتقداتهم ، كأنهم لا يجهلون  
شيئاً ، ولكنهم لا يستطيعون شيئاً إلا ان يسخر بعضهم  
من بعض ، وبهذا ، فقط ، هم على حق . لا يعرف

البشر الا القليل القليل مما يمكنهم ان يعرفوا، بيد انه يوجد،  
ثمة ، مواضيع لا تحصى لا نستطيع ان نعلم عنها شيئاً  
مهما بذلنا من جهود . ليس الحكيم ، اذن ، من يدعي  
علماً شاملاً ، بل من يستطيع ان يعرف حدود معرفته  
الحالية والممكنة، ومن يعرف « ان يجمل ما لا يستطيع ان  
يعرفه » فيجيب « لست ادري » عما لا يدري، ويعلن نفسه  
من غير خجل « الفيلسوف الجاهل » حسب عنوان احد  
كتب فولتير .

الاتجاه الثالث . لنعرف ان نختار بين المسائل التي  
تُطرح على البشر وتثير جدالات حامية . فمن هذه  
المسائل ما ليس له اهمية عندنا ، ولا جدوى ، لانه  
تصوري محض ، وتقدير محض ، مثلاً : هل الكون  
متناهٍ ام لا متناهٍ ؟ هل هو مركب اساساً، من ذرات  
ثابتة ام من عناصر قابلة الانقسام الى ما لا حد له ؟  
يا لها من أحاجي مرهقة للدماغ !

لا فائدة لنا من مثلها ، لانها لا حل لها لدينا .  
« ماذا يهمنا منها ؟ » . ان ما يهمنا هو غير ذلك ،  
هو تنظيم حياتنا : كيف يجب ان ننظر الى المعتقدات  
الدينية ! اية مبادئ سلوك يجب ان نتبع ، ولماذا ؟

كيف يجب ان تنظم المجتمع والدولة ؟ كيف يجب ان نربي اولادنا؟ هذه هي مسائل تقيد من التعمق في بحثها ؛ اما المسائل الاحاجي ، فلندعها جانبا . ان للقوى البشرية حدوداً ، لذلك يجب ان نوجه جهودنا آخذين هذه الحقيقة بعين الاعتبار .

من هنا ينتج منهاج فلسفي بكامله . المطلوب ، قبل كل شيء ، تمييز بعض الأبحاث الأساسية ، واستخراج نتائجها المنطقية ، ثم التفكير في الصعوبات التي يمكنها ان تعترضنا ، وفي ما يجب ان نصنع إزاء كل ذلك .

اما في ما يتعلق بالأبحاث الاساسية ، فعلياً ان نحص منها الابحاث التي تعرض لنا ، ونرى هل يوجد بينها ما لا نستطيع ان نرتاب في حقيقته بحسب وجداننا العميق ، الصادق ؟ لا شك في ان من يريد ان يتلهم بالجدالات الارتيازية المتحذقة يستطيع ان يماحك في كل شيء ؛ ولكن المماحكة لا تجدي شيئاً . المطلوب ان نرى ، حينما نكون مخلصين في قرارة انفسنا ، هل يوجد ، ثمة ، حقائق أكيدة يفرض علينا التسليم بها ، ام لا يوجد ؟ مثلاً : هل يمكنني ان ازعم ، 'مخلصاً' ، انني لست بموجود ؟ ان الحاسة الطبيعية هي ،



في مثل هذا السؤال، اصدق من حك الادمغة والتفلسف  
الفارغ . فالمنهاج الذي يأخذ بالحقائق الواضحة من  
طبيعتها هو الذي يجب ان تتبعه لكي نجعل من هذه  
الحقائق نقطة انطلاقنا الاولى . فان نحن عرفنا ان نقيّد  
من هذا المنهاج القويم بلغنا الى تلك الحقائق التي لا  
نستطيع ان نتنكر لها من غير ان نخجل من انفسنا .

يعتقد روسو اننا حينما نتطلق من تلك الحقائق يتاح  
لنا ان نستخرج منها شتى النتائج الحتمية . ان نحن  
عرفنا ان للهواء وزناً ، استطعنا ان نعرف ما يحدث  
للبارومتر من تبدل عند نقله الى مكان ارفع ؛ او ان  
نحن تأكدنا من صحة خطة سلوك معينة ، استطعنا ،  
ايضاً ان نعرف ماذا يجب ان نصنع في ظروف معينة  
بالنسبة الى هذه الخطة . ان فن استخراج النتائج المنطقية  
من مبادئ مسلم بصحتها هو ، اذن ، عنصر هام من  
عناصر المنهاج .

ولكن ، ان نحن انطلقنا من تلك المبادئ المحققة  
فبلغنا الى نتائج لا تتفق بعضها مسع بعض ، يجب ألا  
نضطرب . لا يمكن لعقلنا البشري ان يحلو جميع  
الظلمات ، بل ان جل ما يستطيعه ، في تلك الحالة ،

يتلخص بأقحام « بعض تكهنات متواضعة » ؛ ولكنه يخلص الى القبول « يجهل ما لا يستطيع ان يفهمه » .  
حينما تمس المبادئ المبحوث فيها قلب الفيلسوف ، لا تعود تقلقه التناقضات الظاهرة ، بل يتبع نصيحة بوسويه : « فيمسك بطرفي السلسلة ولو لم يكن يرى وسطها » .

هذا هو المتهاج الافضل ، وهو منهج النائب الساقوي : « آخذ على عاتقي ، بحسب هذه الطريقة ، فحص ما تهمني معرفته ، مصمماً على التسليم بالحقائق التي تبدو واضحة لوجداني العميق ، ثم بالحقائق التي لها علائق حتمية مع الاولى ، وترك كل ما بقي في ظلام الشك فلا ارفضه ولا اثبتسه لان البحث فيه لا يجدي نفعاً » .

تفسر لنا هذه المواضيع الاساسية حنق جان جاك روسو من مخترعي الطرائق المرسومة رغبة منهم في الظهور والطنطنة اكثر من البحث عن الحقيقة ، وتفسر لنا كذلك عدم اهتمامه بصعوبات عقيدته الخاصة ، وقدلنا على طبيعة المشكلات التي يهتم لها : المشكلة الدينية ، والمشكلة الاخلاقية ، والمشكلة التربوية ،

والمشكلة السياسية . يعلم روسو جيداً ان فلسفته لا تشرح لنا كل شيء لان ثمة صعوبات لا يستطيع اي علم بشري ان يحلها . ولكن ، ان تكن جميع النظريات غير كافية ، في النهاية ، فان بينها ، مع ذلك ، فروقات جسيمة ، لان منها ما لا يمكن تصديقه ، ومنها ما يبدو ، على الاقل ، قابلاً للتصديق . وبما ان روسو يعتبر نظريته أحق بالتصديق من سواها ، لانه لا يستطيع ان يتنكر لها من غير ان يخجل من نفسه امام نفسه لذلك يدعو الناس الى اعتناقها .

ثانياً ... وضع روسو مبادئ نظريته على لسان هذا النائب الاسقفي الساقوي الذي يشكل قانون ايمانه معظم الجزاء الرابع من كتاب «اميل» . ان هذا المقطع مشهور ، ولكنه يحتوي على شيء من الفخفخة والتفخيم . لنجرده من حلاه البديعية ، ومن نزواته العاطفية ، فلا يبقى امامنا سوى عدد قليل من وجهات النظر التي تشكل ، بمجموعها ، هذه «الديانة الطبيعية» التي يعتبرها روسو ملأى بالنتائج الحاسمة في الحياة .

آ... ان الديانات التي ازدهرت وتزدهر في العالم لا تحصى ، وهي تختلف ، فيما بينها ، كل الاختلاف ،

وتحتوي كل منها على عقائد تستند الى اساطير مدهشة ،  
برجها عام ، والى طقوس غريبة الشكل ، في الغالب ،  
والى قواعد اخلاقية منها ما هو غريب للآمال ؛ ثم ان  
تنوعها ، ذاته ، من شأنه ان يحذر المؤمنين بها من طبيعة  
ايمانهم المريبة . ان يكن كل منا يؤمن بما يؤمن من  
عقائد واسرار ديانته ، أليس لانه ولد في مكان معين ،  
وفي زمن معين من التاريخ ! ، ان ايمان الصغار ، وايمان  
الكثيرين من الناس ، مسألة جغرافية .

ثم اعتقد البعض من الفلاسفة انهم جديرون بان  
يبنوا مذاهب دينية واسعة ، فاخترعوا جملة براهين  
نظرية لعقائد ميتافيزيقية كوجود الله وخالود النفس ،  
وظنوا انهم بلغوا الى علم لا ينقض ، وهذا ادعاء مليء  
بالسذاجة والكبرياء معا ، فليس في مثل هذه المسواد  
براهين حاسمة ولا بيانات علمية حقيقية .

ليس هذا ما ينبغي لنا ان نبحث عنه . انا نحتاج  
الى اعتقاد ، الى ايمان نختاره . فلنرَ ، اذن ، ان كان  
يوجد ، في حقل المواضيع الدينية ، قضايا ينبغي لنا ان  
نصلقها وأن نؤمن بها في قرارة نفسنا ، حينما نخلص  
النية . فان نحن عثرنا على مثل هذه القضايا تسكنا بها ،

كما يتمسك الغريق بجبل النجاة ، مها اكتنفها من  
الغموض ومن المصاعب النظرية ، اذا افنا لا بد لنا من  
ان نضع حداً لرغائبنا وآمالنا .

نجد ، بادية ذي بدء ، قضيتين يتحتم على اخلاصنا  
الأخذ بهما :

( أ ) انا موجود ، ووجودي يتضح في شكل كائن  
ذي احساس ، وتفكير ، وارادة . هوذا حقيقة لا  
ريب فيها عندي ، فانا اشعر بانني في الوجود ألتذ  
وأنا لم ؛ أحب وأبغض ، وأفكر ، وأصمم ، وهذا  
الشعور هو اقوى وابلغ ، لدي ، من كل بيان وبرهان .  
أليس هذا ما ذهب اليه ديكارت حينما قال جلته  
الشهيرة : « انا افكر ، اذن انا موجود » ؟ وأليس  
هذا ، ايضاً ، ما أشار اليه القديس اغوستينوس ؟ بيد  
ان روسو لا يلجأ الى نفوذ هذين المعلمين اللذين سبقاه ،  
بل يدعونا الى ان نتأمل لذاتنا في ذاتنا لكي نكون على  
ثقة تامة من وجودنا .

( ب ) غير اني لست ، وحدي ، في الوجود ، بل  
يوجد عالم همي بكامله تحدث فيه حركات لا تنقطع .  
وكتب روسو يقول : « ان احساساتي تحدث في داخلي

بما انها تشعرني بوجودي ؛ غير ان سببها هو خارج عني  
لأنها تؤثر في بالرغم مني ولا استطيع ، من ذاتي ، ان  
أحدثها او ان أأشياء . لذلك أميز بوضوح ان احساسى ،  
الذي هو انا ، وان سببه ، او موضوعه ، الذي هو خارج  
عني ، ليس شيئاً واحداً .

والآن ، من اين آتت انا ، ومن اين يأتي هذا العالم  
الذي نراه وهذه الحركات التي نشاهدها فيه ؟ اننا  
نستخرج الجواب على هذا السؤال من تفكيرنا في اصل  
الحركة . الواقع هو ان المادة تبدو لنا على شكلين :  
فهي تارة في سكون ، وتارة في حركة . فان كانت  
المادة تستطيع ان تكون ، من غير ان تتحرك ، فليست  
الحركة ، اذن ، ضرورة لوجودها . انها ساكنة مسن  
نفسها ؛ اذن ، لا يد للحركة من ان تأتيا من خارجها .  
ثم اننا نميز بين نوعين من الكائنات المادية : الكائنات  
الحية التي تنتمي حركاتها ، كما يبدو ، الى مبدأ بداهة  
خاص بها ؛ ثم الكائنات الأخرى الجامدة التي تجري  
عليها الحركة من خارج عنها . لنتظر ، بعد ذلك ، الى  
الكون في مجموعه . كل شيء يجري فيه بحسب نظام  
حيث لا أثر لهذه الحرية البداهية ، الذاتية ، التي قلنا

عند الانسان والحيوان ، هوذا نحن ، اذن ، مضطرون الى الاعتقاد بان عالم الجهاد يتحرك « بواسطة محرك خارج عنه ، كتب روسو يقول : « لا استطيع ان ارى الشمس تدور من غير ان اتصور ان قوة تسيرها » . من هنا ما دعاه النائب الاسقفي السافوي في كتاب « اميل » « عقيدته الاولى » و« قضية ايمانه الجوهريه الاولى » . ثم يقول روسو : « كلما راقبت فعل وردة فعل قوى الطبيعة التي تؤثر بعضها في بعض ، وجدت من الضرورة ان نصعد ، دائماً ، من نتيجة الى نتيجة حتى نصل الى ارادة فاعلة ندعوها العلة الاولى ؛ لاننا ان قدرنا وجود علل متسلسلة الى ما لا نهاية له ، كنا كأننا لم نقدر شيئاً » . الخلاصة « أو من اذن بان ثمة ارادة تحرك الكون وتنعش الطبيعة » . هذا هو الركن الاول الراسخ ، الواضح .

وللحال ، نجد ما يتيح لنا ان نبني ركناً ثانياً :

ان لهذا العالم الذي نراه نظاماً عجيباً نشاهده في حركات الكواكب ، وفي الاعضاء ، والوظائف ، والفرائز التي تعمل على تكاثر وحفظ النباتات والحيوانات ، وفي الحاجز المنيع الذي وضعته الطبيعة بين الاجناس

المختلفة لكي تظل متميزة بعضها من بعض ، فكيف  
 نستطيع ، والحالة هذه ، ان نتجاهل وجود  
 « مقاصد » تدير هذه الطبيعة ؟ « انها لم تكتف بوضع  
 نظام ، بل اتخذت تدابير ثابتة لبقائه » . لا بد ، اذن ،  
 للارادة التي تحرك الكون من ان تكون « قادرة  
 وحكيمة معاً » . « سواء أكانت المادة ازلية ام  
 مخلوقة ، او كان ، ثمة ، مبدأ سلمي ام لا ، فان الأكيد  
 هو ان الكل واحد تديره ارادة واحدة ؛ لأنني ارى  
 كل شيء مرتباً في نظام كلي واحد وسائراً نحو هدف  
 واحد . وهو حفظ الكل في النظام القائم » . من هنا  
 اراني ملزماً بان اقول : « ان كانت المادة المتحركة  
 تبرهن لي عن وجود ارادة تحركها ، فان المادة المتحركة  
 طبقاً لنظام تبرهن لي عن وجود حكمة تنظمها » .  
 هذه هي قضية ايماني الجوهرية الثانية . لنضم ، الآن ،  
 هاتين القضيتين الجوهريتين الواحدة الى الأخرى ونؤمن  
 بوجود الله : « هذا الكائن ، الذي يريد ويستطيع ،  
 هذا الكائن الفاعل ، الذي يحتوي على مبدأ فاعليته  
 ضمن ذاته ، هذا الكائن اياً كان ، الذي يحرك الكون  
 وينظم كل شيء ، انني ادعوه الله ؛ ثم أضف الى هذا



الاسم صفات المعرفة ، والقدرة والارادة ، التي جمعتها ،  
ثم صفة الصلاح التي تليها حتماً .

ان هذه النتيجة هي هكذا حتمية حتى ان الذين  
يتنكرون لها يُساقون الى ان يقولوا عن العالم أشياء  
مضحكة . ليس للحاد اي مبرر ؛ ان العلاقة بين  
الحركة والمادة لا تفسير لها عند الملحد . أما فكرة  
القائلين بان « قوة عمياء تنتشر في كل الطبيعة » فليست  
« فكرة حقيقية » . ومنهم من يعزو النظام الذي نشاهده  
في الكون الى العدد الاكبر ، اي الى المصادفة ، وهذا  
الرأي ليس بالمعقول : « فلو قيل لي ان حروفاً مطبوعة  
أُقيت عرضاً واتفاقاً فألفت الـ ( إنييد l'Énéide )  
لما كلفت نفسي بان اخطو خطوة واحدة لكي اتحقق من  
صحة هذا القول ؛ ثم لو قيل لي انك تنسى كبر العدد  
الهائل من المرات التي أقيت فيها هذه الحروف عرضاً  
واتفاقاً ، لظل علي ان اعرف العدد اللازم من المرات  
الاتفاقية التي تنتهي بتأليف هذا الكتاب الضخم . بيد  
اني لا ارى من المرات سوى مرة واحدة ، واني أراهن ،  
بكل تأكيد ، على ان ليس للمصادفة اي دخل في هذا  
النظام . ان الله موجود ، وهذا ما « يشعر » به

روسو ، ويشعرنا به بدوره ، وهذا ما له « عندنا أهمية كبرى » .

صحيح ان الغموض يكتنف كيان هذا الاله الذي يؤمن به روسو : فكيف ندرك ما هو فهمه ، وما هي ارادته ؟ هل خلق العالم ؟ وكيف خلقه ؟ ما هي ازليته ، ولا نهايته ، وكلية قدرته ؟ هل هو منفصل تماماً عن العالم ، ام ينفذه من الداخل ؟... لا يوجد سوى جواب واحد على جميع هذه الاسئلة : « لست اعلم من كل ذلك شيئاً اكيراً ، ولكن ، ما همني ؟ » . يكفيني ان يكون وجود الله حقيقة لدي حتى انظم حياتي ، وافكاري ، وعواطفني ، طبقاً لهذه الحقيقة .

بيد ان الجدل لا ينتهي : فان كان هذا الاله كلي المعرفة ، وكلي العدالة ، وكلي الصلاح ، فكيف تفسر الشر الذي يتفاسق في العالم : الشر الجسدي ، والشر الروحي هذا الشر الذي يتدرّع به الملحدون لكي ينكروا وجود الله ؟

يبدو الجواب على هذا السؤال من الصعوبة بمكان ؛ ومع ذلك ، من الممكن توضيحه ، ولكن بعد توضيح ثلاث فئات من المسائل ذات الأهمية المعنوية الحاسمة .

٢٠) - قلنا ان الله ارادة حرة ؛ ولكن ، كيف نستطيع ان نؤكد ذلك ؟ ان عاطفتنا الباطنية المباشرة هي التي تتكفل ، هنا ، بطمأنتنا ، لانها تلبؤنا بحرية ارادتنا التي لا ريب فيها عندنا . انها نقطة رئيسية بذاتها وبناتجها .

يقول روسو : يستحيل علي ان ارتاب « في قرارة نفسي » بحرية ارادتي ، لانني اشعر بها شعوري بفكري ذاته ، واحققها باختباري الشخصي : انا حر في ان أثبت هذا الشيء او لا اثبته ، وفي ان استسلم لما اتأثر به او انتقده انتقاداً منهجياً . ان فكري لا يعمل سلبياً ، بل له الفعالية والحرية في ان يقارن ويميز بين الاسباب والعلائق ويحكم عليها نقياً او اثباتاً . ثم يضيف روسو قائلاً : « انني ادعي شرف التفكير الحر » . ان هذه الحرية ، يقول روسو ايضاً ، تتضح لي من اعمالتي التي يتطلبها جسدي . انكم تسألونني كيف اعلم ان ، ثمة ، حركات بداهية مباشرة ، فأجيبكم : لأنني اشعر بوجودها : فان اردت ان احرك ذراعي حركته لا لشيء إلا لأني اردت ان احركه . انكم عبثاً تحاولون ان تهدموا في هذا الشعور لانه اوضح من جميع براهينكم

في قرارة نفسي ؟ انه واضح وضوح وجودي ذاته ، .

لا ريب ، اذن ، في حرية ارادتي ؛ وهذا ما يحملني  
على الاعتقاد بحرية الارادة الالهية . لا شك في ان طبيعة  
هذه الحرية التي اشعر بها في داخلي لا استطيع معرفتها ؛  
فاني اتساءل : « كيف تستطيع الارادة ان تحدث فعلا  
جسدياً ، فأجيب : لست أعلم ؛ ولكنني اشعر ، في قرارة  
نفسي ، بانها تحدثه . لانني لا اعرف حرية ارادتي  
ومفعولها الا من اعمالها ، لا في جوهرها ذاته ، .

لا شك ايضاً ، في ان اشياء كثيرة تعارض حريتي :  
« لست مختيراً في حيي الخيري ، او في كرهني لما يضرني ،  
بل مسيراً ، ؛ ولكنني حر في ألا اريد إلا « ما يصلح  
لي ، أو ما اظنه يصلح لي ، وذلك من دون ان يقرر  
ارادتي شيء غريب عني . ثم ، الا اكون سيد نفسي  
ان كنت لا استطيع ان اكون شخصاً آخر ؟ » .

انغيراً ، نقول عن حرية ارادتنا ، ما كان يقوله  
ديكارت عنها ، اي « انها مفهوم من مفاهيمنا المشتركة » :  
فان نحن وصفنا الارادة الالهية ، اذن ، بالحرية  
التامة ، فلن نكون قد ارتكبنا حماقة : « ان مبدأ كل  
عمل هو في ارادة كائن حر . ليست كلمة الحرية هي

التي لا معنى لها ، بل كلمة الحتمية .

يستفتح روسو من كل ذلك نتيجة رئيسية : ان ما هو مادي محضاً يتلقى حركته من الخارج ثم ينقلها آلياً ، لذلك ليس هو بحرّ ولا يمكنه ان يكون حرّاً . بيد اننا نجدنا ، نحن ، احراراً ونستنتج من ذلك ، حتماً ، اننا لسنا ماديين محضاً . « لا يمكن لاي كائن مادي فحسب ان يكون له مبدأ نشاطه في ذاته ، اما انا ، فلي » . لا بد ، اذن ، من ان يكون فيّ مبدأ روحي ، نفس لامادية تتميز عن جسدي وتوجه اعماله وتسيطر عليها . ان هذه الخلاصة مليئة باعظم النتائج الاخلاقية : « الانسان حر في اعماله ، وبما انه حر في اعماله ، فلا بد له من ان يحتوي على عنصر لامادي . هذه هي قضية ايماني الجوهرية الثالثة .

لنحتفظ الآن ، جيداً ، بهذه النتيجة المزدوجة ، اذ لم يبق امامنا سوى خطوتين حتى نرى ذريعة الشر قد هان وحضها .

( ٢٣ ) - لا يكفي التقليد المسيحي باعلان وجود النفس فينا ، بل يؤكد لنا انها خالدة . فماذا يجب علينا ان نفكر ؟

يجب ان نفكر ، اولاً ، ان ذلك ممكن ، وأن  
مصير النفس لا يرتبط ارتباطاً حتمياً بمصير الجسد .  
ان الجسد هو شيء مادي قابل للفساد والانحلال ، اما  
نفسنا فروحية وغير قابلة للانحلال ولا للفساد . عبثاً  
يعلم بعض فلاسفة القرن الثامن عشر في دائرة معارفهم  
(l'Encyclopédie) نكرانهم لخلود النفس اذ ليس لهم اي  
برهان مقبول على ذلك .

ثم اتنا نرى ، في هذا العالم ، صالحين كثيرين يشقون  
ويتألمون ، وطالحين كثيرين يظفرون ويتنعمون ، وهذا  
ما تأسف له قلوبنا ، وتقلق له افكارنا . نحن نعلم ، حق  
العلم ، ان عناية عادلة وصالحة تدير الكون ، لذلك  
يتحتم علينا ان نعتقد بان التشويش الذي يشككنا ، في  
هذا العالم ، لا يمكنه ان يكون إلا تشويشاً ظاهرياً ،  
ما لم يكن مصير الانسان بعد الموت القناء المطلق .  
لذلك ينبغي لنا ان نعتقد بان الشخص البشري لا  
يتلاشى بعد الموت ، وبأن الظلم الذي يشككنا في هذه  
الحياة لا بد من ان يتساوى بعدها ويحل محله العدل .  
« كلما خلوت الى نفسي وسألت ذاتي سمعت هذه الكلمات  
تدوي في اعماق قلبي : كن صالحاً تكن سعيداً » . ان

انتصار الاشرار في هذا العالم هو الذي يفرض علينا  
هذه الخلاصة : « لا ينتهي كل شيء في هذه الحياة » ؛  
لا بد من وجود حياة ثانية يتحقق فيها العدل .

والآن ، ماهي هذه الحياة الثانية ؟ ماذا يحدث فيها ؟  
هل بقاء النفس بعد الموت بقاء مؤقت ام بقاء ابدى ؟  
لا يستطيع احد الاجابة على هذه الاسئلة ، ويظل من  
الاصح ألا نحكم فيها حكماً قاطعاً . مع ذلك ، يمكننا  
القول إن فكرة خلود النفس ليست فكرة مستحيلة ،  
او غير معقولة : « وبما ان هذه الفكرة تعزيني ،  
وبما انها ليست بالمستحيلة فلماذا اخاف من تبنيتها ؟ » .  
على كل حال ، يجب ان نعتقد بان النفس ، طالما  
ظلت حية بعد موت الجسد ، فانها تحتفظ بذاكرتها ، وإلا  
فكيف يستطيع المجرم ان ينال عقابه ان هو لم يتذكر  
خطاياہ الماضية ؟ وكيف يشعر الصالح بالسعادة ان لم  
يكن يعلم ان هذه السعادة هي جزاء اعماله الصالحة .

(٤) - اليك ، الآن ، اهم نقطة في فلسفة روسو . لا  
شك في اهمية النتائج التي توصل اليها ؛ ولكن ، هل هي  
كافية لكي نستخلص منها ما يجب ان نضع ، وكيف  
يجب ان نسلك في كل زمان ومكان ؟ يجب روسو

بالإيجاب . انه يمشي في عصر يسيطر عليه قنود  
الفيلسوف الانكليزي لوك الذي ينكر مواهب الانسان  
الفطرية ، خلافاً لما ذهب اليه ديكارت واتباعه ، ويعيدها  
الى الاختبار الحسي والتربية .

اما روسو فانه يخطئ ، فلسفة لوك ويعتقد بوجود الفطرة  
في الانسان . يكفيه ، لكي يبرهن على صحة نظريته ،  
ان يلاحظ كلبه ، ان الكلب يندفع بقطرته ، ومن غير  
ان يلقيه احد ، الى مطاردة النواجذ وقتلها من غير ان  
ياكلها ، وهو يتخذ أمام اليد التي تهدده افضل وضع  
تضرع لرد غضب مهده . ان هذا لدليل قاطع على وجود  
الفطرة والغرائز التي تستطيع التربية أن تنميتها ، أو أن  
تشلها ، ولكنها لا تستطيع ان تخلقها . فكيف نعجب ،  
اذن ، من وجود هذه الفطرة عند الانسان وهي  
موجودة عند الحيوان ؟ بيد ان روسو يعتقد بان التأمل  
الصادق بين لنا وجود طبيعتين مختلفتين في الانسان يدل  
عليها نوعان متناقضان من الغرائز والرغائب .

نشاهد ، اولاً ، سلسلة كاملة من الغرائز الطبيعية التي  
تدفعنا الى إشباع ما يسميه روسو « مصالحنا المادية » ،  
اي ما من شأنه ان يحفظ شخصنا وينميه بأي ثمن : كل



شيء لي ، ولو على حساب الغير ؛ كل شيء لفظي ؛ كل شيء لتفميقي ؛ كل شيء لمقدرتي ؛ كل شيء لدفع الألم عني ؛ كل شيء للذاتي . هذه هي القاعدة هنا .

ولكننا نشاهد ، في ذات الوقت ، شيئاً يختلف كل الاختلاف : مجموعة من المؤهلات الغريزية ، المولودة معنا هي أيضاً ، أي ما يسميه روسو « المصلحة الروحية » ، وهي مصلحة تتعارض ، دائماً ، مع مصالحنا المادية .

تقسم هذه المؤهلات الى نوعين :

تمجّب روسو ، منذ كتاباته الاولى ، من احتواء نفسنا على هذه الميول الفطرية الى الانعطاف ، هذه الميول التي تتمثل بعواطف الشفقة التي يمنح اليها ، تلقائياً ، الانسان الاكثر بربرية فتحمله ، ليس فقط على تجنب القسوة ، بل ايضاً على الاعانة .

ثم لفت انتباه روسو ، بعدئذ ، شيء آخر أشدّ عجباً ، وهو الضمير الوجداني . واليك صفحة شهيرة وصف بها روسو هذا الضمير الوجداني : « ايها الضمير ! ايها الغريزة الالهية ، والصوت السهاري الخالد ! ايها الدليل الامين الذي يهدي كائننا جاهلاً ، محسوداً ،

ولكنه عاقل وسحر ؛ ايها المميز المعصوم بين الخير والشر  
الذي يجعل الانسان شبيهاً بالله ! أنت الذي ترفع  
طبيعة الانسان وتصلح اعماله ؛ بدونك لا اشعر في  
داخلي بشيء يرفعي فوق مرتبة الحيوان سوى هذا  
الامتياز الهزن الذي استطيع به ان اسير من ضلال الى  
ضلال وراء بصيرة لا هادي لها ، وعقل لا مبادئ  
فيه ! .

ولنترح ، الآن ، هذا الهتاف حرفاً بحرف :  
الضمير غريزة شبيهة بغريزة الطائر الذي يبني عشه .  
الضمير غريزة الهية مقدسة ، ولذلك فهو يفوقنا بمصدره  
ذاته . الضمير دليل اكيد ، معصوم ، يجب علينا ان  
نستشير في جميع الظروف وتلعب الارشادات التي  
يسديها الينا . يحتوي الضمير ، اذن ، على القاعدة الاساسية  
التي يجب ان توجه اعمالنا في كل زمان ومكان .

الضمير فطري في الانسان ، ولكن يجب ان نفهمه .  
لا يوحى الينا الضمير ، آلياً ، ماذا يجب ان نصنع في  
كل ظرف ، بل علينا ان نفتكر في ذلك ونبحث عنه  
بفطنة وانتباه . مستندين الى هذه الحساسة الفطرية ،  
الباطنية ، البداهية ، الامينة التي نعرف بها ، بصورة

حدسية ، غريزية ، ان تختار الاتجاه الأوحـد الصالح من بين الاتجاهات التي يعرضها علينا عقلنا . « ليست معرفة الخير ، حتماً ، محبته ؛ وليست معرفتنا إياه فطرية ، بل حينما يبينه عقلنا لنا ، يدفعنا ضميرنا الى محبته . ان هذا الدافع هو الفطري فينا . »

لا يستطيع احد ان ينكر وجود هذا الضمير في الانسان . كم من اعمال لا يمكننا شرحها ، ولا فهمها ، ان كنا لا نهتم الا لمصالحنا المادية ؛ كيف نفهم ، ان لم يكن لنا ضمير ، تحمينا لفضائل الصالحين وكرهنا لجرائم الاشرار لا لشي إلا لأن هؤلاء اشرار واولئك صالحون ؟ وكيف نفسر اندفاع البطل الذي يمضي الى الموت حباً للمالـح العام ؟ وكيف نفسر سلوك هذا المـلـثـف الانكليزي الذي يذكره روسو ، سنة ١٧٦١ ، في رسالته الى صديقه دوفرغيل ؟ كأن يعرف هذا المـلـثـف ان المـتـمـ الذي يحاكمه بريء لانه هو الذي كان قد ارتكب الجرم المنسوب الى المـتـمـ ومن مصلحة المادية الكبرى ان يحكم المـلـثـفون زملاءه على المـتـمـ كما كانوا يريدون وتنتهي القضية ؛ ولكنه حجب صوته ، بينها كانت الاجماع ضرورياً للحكم والمـلـثـفون مختلفين وصائين حق

حصول هذا الاجماع . ظل مثابراً على حجب صوته ،  
ولو تعرض لتحويل الاتهام عليه ، حتى أجبر المؤلفين  
على تبرئة المتهم البريء . فهل كان صنع هذا الصنيع  
لو كان ما قاله « كمنط » حينما ستمى الضمير « الصوت  
النحاسي » غير صحيح ؟

أكسد روسو ، بالرغم من اقوال اولئك الفلاسفة  
الارتيابيين ، ومن بينهم مونتاني ، ان الضمير يقول  
للناس ، في جميع الازمنة والامكنة ، ذات الشيء :  
« انظروا الى جميع امم العالم ، وطالعوا جميع  
التواريخ ... تجدوا ، في كل مكان ، ذات مفاهيم  
العدل والاستقامة ، وذات المبادئ الاخلاقية ، وذات  
التظرة الى الخير والشر . هل تجدون في اي بلد من بلدان  
العالم احداً يجرّم من يحافظ على ايمانه ، أو من يشفق  
على سواه ويحسن اليه بسخاء ، ويحتقر رجس الخير ،  
ويكرم الرجل الخادع ؟ » .

ألا يكفي كل ذلك للتأكد من وجود الضمير ؟  
« لا حاجة للعلم ، ولا للفلسفة ، لكي يكون الانسان  
صالحاً وفاضلاً ، ولا حاجة لحلاّلي مشاكل الضمير  
لكي يعرف الانسان ما يجب عليه ان يفعل . ليسأل

كل انسان ضميره بإخلاص فيملي عليه حبه المباشر  
الساوك الذي يجب ان يسلكه . ولا احتساح إلا الى  
استشارة نفسي في ما اريد ان افعل : فكل ما اشعر به  
انه الخير ، كان خيراً ؛ وكل ما اشعر به انه الشر ، كان  
شراً . . انها لقاعدة بسيطة وحاسمة لا يحتاج الانسان  
إلا الى اتباعها لكي يكون فاضلاً .

ولكن ، لماذا يريد الانسان ان يكون فاضلاً ؟ لماذا  
لا يعيش من غير ان يهتم للضمير ولأوامره ؟ هنا نجد  
في جواب روسو بعض الغرابة .

اعتقد روسو بأنه اعطى البراهين الكافية على وجوب  
الايان بالعناية الالهية ، وبجبرية الانسان ، وببقاء النفس  
بعد الموت . انه ، اذن ، ضمن الشروط التي يعتبرها  
اللاهوتيون ضرورية وكافية لبناء الاخلاق . انهم ،  
جميعهم ، يدعون الانسان الى الافتكار في انه اذا أطاع  
الله كافأه واذا عصاه عاقبه ، ويخلصون الى هذه النتيجة :  
يجب على الانسان ان يطيع ضميره الذي هو صوت الله  
وذلك احتراماً لله ، وحباً له ، وخوفاً من غضبه ، غير  
ان روسو لا يريد ان يكون الانسان فاضلاً لكي يقال  
مكافأة او يتجنب عذاباً آتياً من مصدر خارجي ، لا

شيء ، في نظره ، يشوه الفضيلة كاتباعها طمعاً بمصلحة مادية .

كان دوفرقييل قد سأل روسو ان كان لا يجب على الانسان ، لكي يسلك سلوكاً اخلاقياً حقيقياً ، ان يعمل خارجاً عن كل اهتمام بآية مصلحة له . وقد اكد «كنط» ، في ما بعد ، انه لا يكفي للانسان ، لكي يكون فاضلاً ، ان يقوم بواجبه ، بل يجب عليه ، ايضاً ، ان يقوم به بدافع الواجب فحسب . لا شك في ان «كنط» كان قد تأثر بروسو في تفكيره هذا .

يقول روسو ، في هذا الصدد ، ما مفاده : ان الذي يعمل طمعاً بفائدة مادية يخرج عن الاخلاق ، حتى ولو اتبع القواعد الاخلاقية ؛ فالذي لا يمتنع عن السرقة الا خوفاً من العقاب ، او لا يصنع الحسنة الا لكي يظهر امام الناس ، لا يكون سوى تاجر يبيع فضيلته مقابل ثمن فلا يعمل إلا تجنباً للخسارة وطمعاً بالربح .

ولكن يوجد ، ثمة ، قضية اخرى يلبني لنا مواجبتها وهي ان الذي يعمل بحسب ضميره يشعر بلسذة معنوية كبرى وبرضى كامل عن نفسه امام نفسه ؛ والذي يعمل ضد ضميره يشعر بوخز ضمير حاد وباحتقار لنفسه مؤلم قد

يقوده الى الانتحار . لا شك في ان من يطيع ضميره لكي يحظى باللذة المعنوية ويتجنب وخز الضمير يعمل مدفوعاً بمصلحته ؛ ولكن هذه المصلحة ليست ، هنا ، مادية ولا تجارية ، بل روحية ، وفاضلة .

غير ان الفضيحة لا تكفي ، كما يزعم الفلاسفة الرواقيون ، لكي تجعل الانسان سعيداً على هذه الارض ، ولكنها ضرورية ، على كل حال ، لكي تجنبه الشقاء وعذاب الضمير . ان جهنم « في قلب الاشرار » خلال هذه الحياة ، ولا سيما في الحياة الاخرى .

٥٥) - اصبحنا الآن مؤهلين لكي نفهم وجود الشر ونزد على الملحدين .

بما ان ، ثمة ، عناية اهلية ، فكل شيء يجب ان يكون صالحاً عند خروجه من بين يديها . مع ذلك ، يوجد شرور في العالم - ولكن ، علينا ألا نضع الذنب إلا على الصورة التي نستعمل بها ، نحسن الاحرار ، حريتنا - لولا اهاؤنا ، وحقاقتنا ، وجنوننا ، لسكان كل شيء حسناً . اننا نتشكى من الشرور التي تنتاب البشرية ، ولكننا نحسن الذين صنعنا هذه الشرور : « أزيلوا تقدمنا المشؤوم ، وضلاتنا ، وعيوبنا ، أزيلوا

عمل الانسان فيصطلح كل شيء .

ولكن ، رب قائل يقول ان الله هو المسؤول رغم كل ما قدمت ؛ أما كان يمكنه ان يقصي عنا هذه الامكانيات التي قادتنا الى عمل هذا الشر ذاته الذي عملناه ؟

إن هذه النظرة سطحية ، يجيب روسو .

أن يكون باستطاعتنا ان نستعمل استعمالاً سيئاً هذه الامكانيات التي تجعلنا بشراً ، ليس ذلك سبباً لحرماننا مما يمنحنا تفوقنا الوحيد . هل كان من الضروري حصر الانسان في غرائزه كالبهائم لمنعه من ان يكون شريراً ؟ لا ، يا اله نفسي ، لن الومك ابدأ على جعلك الانسان شبيهاً بك لكي استطيع ان اكون ، انا ، ايضاً ، حراً ، وصالحاً ، وسعيداً مثلك .

ثم ان من الممكن ان تكون غاية الكون وجود صالحين يثعمون ، منذ هذه الحياة وبمدها ، بالرضا الباطني الذي تحدده الفضيلة . ولكن ، ليس من المستطاع وجود هؤلاء الصالحين إلا اذا كانوا احراراً في عمل الخير ، وكذلك في عمل الشر . ان القبطنة القسوى هي التي تتبع من رضا الانسان عن نفسه ؛ ونحن لم



فوجد على الارض احراراً ، تفويها شهواتنا وبردعنا  
ضميرنا ، الا لكي نكتسب هذا الرضا . ذلك بالاضافة  
الى ان الشرور التي نهاجمنا هي التي تليح لنا ، بالتغلب  
عليها ، ان نستحق الفرح الداخلي الذي يشيعه فينا  
الثبات والتسليم .

هذا ما يكفي ، الكفاءة التامة ، لتبرير العناية  
الالهية . « لا تبحث ، ايها الانسان ، عن صانع الشر ؛ ان  
صانع الشر هو انت . اعرف ، قبل كل شيء ، ان  
تتجنب عمل الشر باتباعك أوامر ونواهي ضميرك ، ثم  
اغتم فرصة الظروف التي تؤملك لكي تكتسب ،  
بواسطة رضوخك ، من جهة ، ونشاطك ، من جهة  
ثانية ، رضى تاماً عن نفسك . حينئذ لن تكون  
ملحداً ولا خرافياً بل متديناً ؛ لان الدين هو الاخلاق ،  
والثقة بالله ، والقناعة بما قسمه الله لك . « ان القلب  
الصالح هو هيكل الله . لذلك كل دين يدفع الى هذا  
السلوك ، ويقدر ما يدفع اليه ، يكون محترماً أياً كان  
نوع عبادته وطرقها .

٣ - هذه هي المبادئ الفلسفية التي سادت افكار  
روسو ، ان لم تكن سادت ملوكه . انها تلقي نوراً ،

بوجه خاص ، على عقائده السياسية والتربوية معاً ، وهي مبنية على فكرة واحدة ، اي الفكرة التي حاولنا اظهارها : ان العناية الالهية التي تدير الكون هي صالحة تحديداً . لقد كان من شأن صلاحها ، اذن ، ان تعطي كل نوع من الكائنات الطبيعة التي تلائمها ، اي التركيب الجسدي ، والمؤهلات الفهمية ، والميول والفرائض التي يحتاج اليها لكي يحيا ويتكاثر . هكذا منحت العناية الالهية النباتات ، والحيوانات ، والبشر ، منذ الساعة الاولى ، طبيعة تناسب مصيرهم ؛ ولذلك كان كل ما يلائم هذه الطبيعة صالحاً ، وكل ما يشلها ويخنقها ، رديئاً . وبما ان منظمي السياسة ، وواضعي المناهج التربوية ، قد جهلوا هذه الحقيقة ، لذلك كانت انظمتهم ومناهجهم في العالم سيئة ؛ ولذلك ، ايضاً ، اذا اردنا اصلاحها ، وجب علينا ، قبل كل شيء ، ان نتذكر ما كان عليه « رجل الطبيعة » . لقد حاول روسو ان يقول لنا هذا في مقاله عن اصل وأسس عدم المساواة بين الناس :

ان هذا الرجل ، رجل الطبيعة ، لم يعد يمكننا ان نعرفه تاريخياً لانه تحول وتلاشى منذ ما قبل التاريخ ،

ولكن التفكير يخولنا تصور الخطوط الكبرى لما كان عليه . يصفه لنا روسو عارياً « سادراً في الغابات ، لا صناعة له ، ولا نطق ، ولا مسكن ، ولا حروب ، ولا حاجة الى ابناء جنسه ، ولا رغبة في اذية اي منهم ، حتى ولا معرفة احد منهم شخصياً » . ليس هو « عرضة الا لقليل من الشهوات » ؛ انه « يكفي نفسه بنفسه » ، وليس له « إلا « العواطف والمدارك التي تتطلبها هذه الحالة » ولا ينظر إلا الى « ما يظنه مفيداً له » وقد عزا اليه روسو غريزتين اساسيتين ، الغريزة الاولى تدفعه الى المحافظة على وجوده : « ان الخيرات الوحيدة التي يعرفها في العالم هي الطعام ، والانشى ، والراحة ؛ أما الشرور الوحيدة التي يخشاها فهي الوجد والجوع » . والغريزة الثانية هي استعداد « للرحمة » ، وكره فطري لرؤية ابن جنسه يتألم ، ومبدأ سخاء ، وسمح ، وانسانية ، ورعاية ، وصدقة . « يتبع رجل الطبيعة ، اذن ، المثل القائل : اعمل صالحك باقل ضرر ممكن تسببه للغير » وحينها يأكل ويشبع « فهو في سلام مع الطبيعة كلها ، وصديق جميع ابناء جنسه » انه « صالح من طبيعته » .

شيئان ، فقط ، يميزانه ، اذن ، عن الحيوانات التي يعيش فيها بينها : أ - ان له ارادة حرة بدلاً من ان يكون اسيراً لغرائزه ، وان هذه الارادة الحرة هي التي تميزه من الحيوانات اكثر مما يميزه منها الفهم ؛ ٢ - انه قابل للاكمال . تدور الحيوانات ، دائماً ، في ذات الدائرة ؛ اما الانسان ، فان باستطاعته ان يخترع إما لخيرهِ وإما لشرهِ . من هذا الامكان ينتج «تقدمنا المشؤوم» مصدر جميع بلايانا . ان حالة الانسان الطبيعية هي اسعد حالاته جميعها . يقول اصحاب «دائرة المعارف» ان حالة الانسان الطبيعية هي حالة شقاء ؛ اما روسو ، فيقول : «أود ان يقولوا لي ما هو هذا الشقاء الذي ينسبونه الى رجل الطبيعة» واي شقاء يمكنه ان ينتاب كائناً حراً ، مطمئنين القلب ، سليم الجسم .

بيد ان هذه الحالة الطبيعية ، المطمئنة ، السليمة ، قد تلاشت تحت ضغط ظروف يحللها روسو على هواء ، وتلاشت معها حرية الافراد والمساراة المعنوية التي كانت سائدة فيما بينهم . لقد جرى هذا التحول طبقاً لتطور تاريخي يذكر روسو خطوطه الكبرى : «أنا نرى ، اولاً ،

وضع قانون وحق الملكية الفردية ؛ ونرى ، ثانياً ،  
اقامة المحاكم ، ونرى ، ثالثاً واخيراً ، تحويل السلطة  
الشرعية الى سلطة استبدادية . فالمرحلة الاولى خلقت  
الفقراء والاغنياء ؛ والمرحلة الثانية خلقت الضعفاء  
والاقوياء ؛ والمرحلة الثالثة خلقت العبيد والاسياد ،  
وهي اقصى درجات عدم المساواة التي تنتهي اليها جميع  
المظالم .

من هنا نبعث الشهوات الضارّة ، شهوة التسلط  
والحسد ، وحب الذات الجامح الذي يدفع الناس  
الى حب « الظهور » ويتمثل بجمع اشكال البذخ  
والاحتيال ، وبجميع النقائص التي ترافقه . لا ، لم  
يسهم البذخ ، ولا الادب ، ولا الفنون ، في سعادة  
البشر ، بل في إحراجها وإفسادها .

يعلم روسو ان بحث حالة الانسان الطبيعي امر  
مستحيل ؛ ولكن ، ليس من المستحيل الوقوف على  
فوائدها الاساسية بالسير طبقاً لذكرى ما « يلائمها  
سياسياً وتربوياً .

أ) ما هي ، اذن ، اهم فوائده حالة انسان  
الطبيعة ؟ . يجيب روسو بانها : أ - حرية العمل ؛ ب -

المساواة المعنوية . يولد الانسان حراً « ولكننا نراه في القيود في كل مكان » ؛ ويولد الناس متساوين في الكرامة ، ولكننا لا نرى اية مساواة في اي مكان بينهم . من هنا تنبت هذه المشكلة : كيف السبيل الى اقامة حالة اجتماعية يتحقق فيها ، اولاً ، حماية متساوية لجميع المواطنين ؛ وثانياً ، حرية مضمونة لكل فرد ؟ يعتقد روسو ان من الممكن العثور على حل لهذه المشكلة ، وقد بحث عن هذا الحل في كتابه « العقد الاجتماعي » .

يوجد طريقة تتيح لكل انسان ان يشعر بأنه حر في مجتمعه ، وبان حقوقه محترمة ، وذلك ببناء هذا المجتمع على عقد او على ميثاق اجتماعي ، اي على التزام شرعي يتضمن « تنازل الفرد عن شخصيته وعن جميع حقوقه لمجتمعه » . يجب على كل من يريد ان يكون مواطناً في مجتمع ان يرضى بوضع « شخصه وكل سلطته تحت تصرف وادارة الارادة العامة » ؛ فان لم يفعل ، فهو حر في ألا يفعل ، تؤجّب عليه ان يبحث عن جو آخر يلائم رغائبه .

اما الذين يقبلون بهذا التدبير الاجتماعي فانهم لا

يلبثون ان ينعموا بفوائده . انهم ، قبل كل شيء ، وبالرغم من طاعتهم وخضوعهم للشرائع ، يظلون احراراً ، لان الارادة العامة هي التي تسن هذه الشرائع ، ولأن المواطنين ، جميعاً ، قرروا ، بملء ارادتهم ، ان ينظروا الى الشريعة نظرهم الى ما هو صادر عن ارادتهم . فان هم خضعوا لها ، فانهم يخضعون ، اذن ، لأنفسهم . ثم انهم لا يستطيعون ان يعتبروا اية شريعة ظالمة بحقهم ، لأن القاعدة تقول : لا ظلم بحسب من يرضى . والحال ، لقد رضي المواطن ، بملء ارادته ، بالخضوع للارادة العامة ؛ وبما ان هذه الارادة هي التي تسن الشرائع ، فحينئذ يخضع لها فانه لا يخضع إلا الى ارادته ذاتها ؛ فكيف يستطيع ، عندئذ ، ان يعتبر نفسه مظلوماً ؟

اخيراً ، ان القرار الذي يجعل من سكان بلد ما مواطنين ينظر ، بادىء ذي بدء ، الى جميعهم نظرة مساواة : بما ان كلا منهم يضع ذاته بكامله تحت تصرف المجموع ، فان المساواة تكون قائمة بذلك ، فيما بينهم .

لكن ، يجب ألا يغيب عن ذهن احد ان جميع

المواطنين الذين قبلوا بالميثاق يرتبطون به ارتباطاً لا  
تفصم عراه ، ويطيمنونه ، جميعاً ، وبلا استثناء ، تحت  
طائلة القسر والارغام عند الاقتضاء . « كل من يرفض  
ان يطيع الارادة العامة يُرغم على طاعتها ، وهذا يعني  
انه يُرغم على ان يظل حراً ، ، اي ان يظل منسجماً  
مع قراره الحر الاول .

ان هذه المبادئ جد بسيطة كما يبدو ، وهي تحفظ ،  
بالتساوي ، كرامة وحرية كل مواطن . ولكن الغموض  
ينتشر امامنا حينما نذهب الى أبعد ، اذ كيف يجب ان  
نفهم هذه الارادة التي يتنازل لها جميع المواطنين عن  
جميع حقوقهم ؟

لا يتألف مجتمع تألفاً عقلياً ، مضبوطاً ، الا حينما  
يرضى جميع اعضائه ، بالاجماع ، بشرطه الاول .  
فهل يجب ان نستنتج من ذلك ان الارادة العامة ، يجب  
ان تكون هي ايضاً ، اجماعية ، لكي تكون شرعية ؟  
شعر روسو بحجاجة الموقف فيادر الى رفض هذه النظرية  
رفضاً باتاً وقال : ان هذه الارادة تُعتبر عامة حينما  
تكون هذه الارادة ارادة الاكثرية ، وذلك بعد  
استشارة جذرية ، مطلقة . فالقانون الذي يقرره ،



بالاقتراع الصحيح ، نصف المواطنين بزيادة مواطن واحد  
يُعتبر قانوناً ساري المفعول .

ولكن ، حتى ولو افترضنا وجود ارادة اجماعية في بلد  
ما ، فان هذه الارادة لا تُعتبر عامة إلا اذا كانت تتعلق  
بمصلحة عمومية لا بمصلحة خاصة . وقد كتب روسو  
يقول : « ليس عدد الاصوات » . هو الذي يحدد  
الارادة العامة ، بل المصلحة المشتركة التي توحد هذه  
الاصوات » .

من هنا ثلاث نتائج :

( ١ ) ان الارادة العامة تكون دائماً قوية بما تتطلع  
اليه من الخير العام ، وبقدر ما تتطلع اليه .

( ٢ ) ولكن ، مهما كان قصد الارادة العامة  
مستقيماً ، فهذا لا يعني انها معصومة ، لانها ليست  
دائماً منارة ، ولأن حسن النية لا يمنع من الوقوع في  
الخطأ . « اتنا نريد دائماً خيراً ، ولكننا لا نراه دائماً » .

( ٣ ) لذلك يجب ألا يكون قرار الارادة العامة غير  
قابل التعديل . يبدو كل قانون لازماً في ظروف معينة ،  
ولكن هذا اللزوم لا يجوز ان يمنع من تعديل القانون ،  
او من الغائه ، حينما تزول الظروف التي اوجبتة

ويصبح مزعجاً .

اخيراً ، تكون الإرادة العامة هي الإرادة الاكثريّة عند اصدار قانون يتوخى المصلحة العمومية . فسلطة هذه الإرادة يجب ان يتنازل كل فرد يريد ان يكون مواطناً ، تاركاً وضعه الاول ، اي حالته الطبيعيّة . بيد ان هذا المواطن الجديد لا يخسر شيئاً بابدال حالته الاولى من حالته الثانية ، لانه يكون قد ابدل « شيئاً مترجرجاً ، وغير ثابت ، من شيء افضل وأثبت » ، ورضي بما يحول « حيواناً جاهلاً ، محدوداً » ، الى « كائن قهيم ، الى انسان » . فليس المجتمع فاسداً لمجرد كونه مجتمعاً ، بل بقدر ما يكون بعيداً عن العقل والعدل . يستخلص روسو من هذه المبادئ جملة نتائج نذكر

اهمها :

١ ) حالماً يتقيد الافراد بالميثاق الاجتماعي لا يبقى لهم حقوق خاصة ، اذ انهم قبلوا بان يطيعوا ، في كل زمان ومكان ، قرارات الإرادة العامّة . « بما ان التنازل يجري بلا تحفظ ... لا يبقى لافراد المجتمع شيء خاص يمكنهم ان يطالبوا به الإرادة العامة » .

٢ ) لا يمكن للإرادة العامة ، في ما يتعلق بسن

الشرائع ، ان تتنازل عن سلطتها لاحد اياً كان ، بل يجب ان تبقى ، هي وحدها ، سيدة التشريع .

( ٣ ) غير ان الارادة العامة لا يمكنها ان تطبق وتنفذ الشرائع التي تسنها ، بل تعهد الى موظفين في تطبيقها وتنفيذها تحت اشرافها ، وهؤلاء الموظفون يُدعَوْنَ « السلطة التنفيذية » . انهم خدام الشعب ويتقاضون راتباً لقاء خدماتهم . فللشعب ، اذن ، واجب مراقبتهم ، بلا انقطاع ، وتشجيعهم ، ان هم أحسنوا الخدمة ، او إقالتهم ان هم اساؤوها . انهم يارسون ، باسم الشعب ، « السلطة التي خولهم اياها ، والتي يستطيع ان يضع لها حدوداً ، وان يعدلها ، وان يستعيدها حين يشاء » . لقد عاش الناس في البلدان ذات الملكية المطلقة السلطة تحت نظام حكم ضال ، فاسد الوضع ، لان السلطة لا تنحصر في افراد ، متميزين عهد الله اليهم في رعاية الامم ، بل تنحصر في هذه الامم ذاتها .

( ٤ ) يجب ألا تنسى ، من جهة اخرى ، ان الارادة العامة تستطيع ، في كل حين ، ان تخطيء ، بالرغم من نياتها الحسنة . وهذا الامكان يبدو مقلقاً بقدر ما يبدو

من الشرائع صعباً : « يلزم آلهة لكبي يسنوا شرائع  
للشعر . فالشعب الاكثر تنويراً هو ، اذن ، الشعب  
الذي : ١ - يعهد الى مشرع حكيم لكبي يسن له شرائع  
تدخل في حسابها ، كما يريد مويتسكيو ، مناخ البلاد ،  
وكثافة السكان ، وخصب التربة ، وظروف شتى تعود  
الى الزمان والمكان ؛ ٢ - يحفظ للاكثرية حق وحرية  
قبول او رفض هذه الشرائع . مع ذلك ، تظل المهمة  
دقيقة ، وشاقة ، حق في هذا التدبير . ألا يقتضي  
لاكثرية الشعب ، لكبي تستطيع ان تحكم على الشرائع  
المطروحة على التصويت ، ان تعرف ، مسبقاً ، ان  
تنتخب مشرعها ، وان تقدر قيمة الشرائع المروضة ؟

٥) لنذكر ، اخيراً ، ثلاثة آراء شهيرة لروسو :  
أ ) الدولة المتضخمة تضعف ؛ « بقدر ما يمتد الرابط  
الاجتماعي ، بقدر ذلك يرتخي ؛ فالدولة الصغيرة تكون  
نسبياً ، وبصورة عامة ، اقوى من الدولة الكبيرة ؛ ب )  
لا افضلية مطلقة بين شكل دولة وشكل دولة أخرى .  
« بوجه عام ، الحكومة الديمقراطية تصلح للدول الصغرى ؛  
والحكومة الارستقراطية تصلح للدول المتأخرة ؛  
والحكومة الملكية تصلح للدول الكبرى » ؛ ج ) كل

مواطن ملزم بان يكون له دين ، أو بان يؤمن ، على الأقل ، بهذا الدين الطبيعي الذي ذكرنا قضاياها سابقاً ؛ لأن المواطن الذي له معتقدات دينية هو وحده الذي يقدم المواطنة ضماناً حقيقية وكافية . ان الملحدين جميعهم عرضة للشك والارتياب ؛ فليهاجروا الى غير مكان .

هذه هي العناصر الاساسية لعقيدة روسو السياسية . لا شك في انه كان يتوخى المحافظة على الحريات الاولى بين اناس الطبيعة . لكن ، يبقى علينا ان نعرف هل يفضي تطبيق ما قال به الى المحافظة عليها ؟ هل يكفي ان يكون القانون صادراً عن اكثرية قد تكون غير مستنيرة ، لكي لا يكون جائراً ؛ وهل يفقد الفرد حقوقه جميعها بمجرد قبوله بالميثاق الاجتماعي حتى ولو اتضح ان الارادة التي اصدرت القوانين كانت جاهلة وحمقاء ؟ وهل يكفي ، لكي تسود العدالة مجتمعاً اضاعها عبر التاريخ ، ان ترضى اكثرية غير متعلمة ، ولا مستنيرة ، ولا حكيمة ، بقوانين وضعها مشرع انتخبته هي قد لا يكون افضل منها ؟

لقد طرح الفلاسفة منذ افلاطون حتى اليوم هذه

الاسئلة التي تلخص بسؤال واحد: هل تستطيع اكثرية جاهلة ومنتحزة وضع تشريع عادل ، مناسب ، حكيم ، يحتوي على ضمانات كافية ؟ لا يزال الكثيرون يشكون بهذا الامكان بالرغم مما ذهب اليه روسو .

ب ) ان ما هو صحيح على الصعيد السياسي ، هو صحيح ، ايضاً ، على الصعيد التربوي . ان نسيان واحتكار غرائز الانسان الاولية هو الذي افسد كل شيء ؛ وحينما فسد المجتمع لم يعد يستطيع ان يعطي سوى تربية فاسدة . ولكن ، بما ان المجتمع قابل للاصلاح ، فالتربية ، ايضاً ، هي قابلة للاصلاح .

كيف يفسد المجتمع هذه التربية التي يتشكى منها روسو ؟ اليك الشرح: حالما تبلغ العائلة درجة كافية من اليسر ، ومن الاعتبار الاجتماعي لا تعود تفكر الا في ان تتخلص من الولد حتى سن البلوغ ؛ فتسلطه ، اولاً ، الى مرضع تسجنه في قمط تجمد له ذراعيه وساقيه لكي تذهب هي الى اشغالها . ان التغذية التي تقدمها المرضع للولد غير كافية . ثم ، بعد سن الطفولة ، يُرسل الولد إما الى مُربي ، واما الى معهد ، واما الى دير . فالمرابي هم ، قبل كل شيء ، بان يجعل من تلميذه مدعاة فخر ،

وشاباً لامعاً في المجالس . اما المعهد والدير ، فانهما  
سجنان ملطفان تحشي فيهما ادمغسة الطلاب بشتى  
الافكار والآراء ، وذلك بواسطة سلسلة من العقوبات ،  
والمكافآت ، والمنافسات ، لكي يستوعبوا ما يسمونه  
معارف العصر ، من تعاليم مسيحية لا يفهمون منها الا  
القليل ؛ ومن امثال ، كأمثال لافونتتين ، لا وضوح في  
معانيها ، ولا سمو في اخلاقها ؛ ومن مفردات مزعجة  
بلا جدوى ؛ ومن دروس تاريخية يجهلون منطقتها ؛ ومن  
خلاصات علمية مزعومة يزدردونها كيفما اتفق الامر .  
الخلاصة ، يُخرج المعهد والدير شباناً أشبه شيء  
بالبيغاوات ، لا هم لهم سوى ما يقول عنهم الناس .

ليس هكذا تكون التربية . ان الطبيعة البشرية  
حاضرة عند كل مولود ، سواء أكان ذكراً ام أنثى ؛  
فالملوب من المربي ، قبل كل شيء ، ان يحافظ على  
هذه الطبيعة ، وان يتحاشى هدمها بواسطة الضغط  
الذي لا مبرر له . وان يساعد على النمو والاكتمال .

يستطيع الولد ، لو ترك لذاته ، ان يتعلم كثيراً من  
اختباره الشخصي ، وبقدر ما تنجح محاولاته المتلثة ،  
يتعلم استعمال أعضائه وعقله ، وتجنب الضار ، والسعي

وراء المفيد ، والتمييز بين الافعال المشرقة ، والافعال  
الشائنة . بيد ان هذا النمو يكون بطيئاً ومحدوداً .  
هنا يستطيع المعلم التدخل لكي يضع تلميذه في افضل  
الشروط التي تتيح له الافادة من جسده ، وعقله ،  
وقلبه . هنا يترتب على المعلم ان يلاحظ ، بفهم ، ردات  
فعل تلميذه الحسنة ، وان يجلبه الى الحكم على ردات  
فعله السيئة ، والى اصلاحها بنفسه . انها مهمة صعبة  
تنتظر المعلم وتفترض فيه البراعة ، والدقة ، واحياناً  
الدهاء . لا يكتب حتى الآن : فالمطالعة تحفظ  
للمراهق ؛ ولا اوامر ، ايضاً ، تجعل الولد يفكر في  
المخالفة والكذب . ليتبع المعلم سير الطبيعة ، ويثق  
بها ، ويلاحظ ردات فعلها . هذا كل ما تتطلبه التربية  
الصحيحة ، وهذه هي كل السياسة التربوية التي يشير بها  
روسو :

ان الولد كائن جسدي يجب تربيته ، من هذه  
الناحية ، كما لو كان خارج المجتمع ، اي بطريقة  
طبيعية خالية من الخدشات الطبيعية . للولد ذراعان  
وساقان ، وحاجبات غريزية الى الحركة ؛ لنترك له ،  
اذن ، ذراعيه وساقيه في حرية تامة . ولقد منعت



الطبيعة الام ثديين ولبننا ؛ فلتغذ طفلها ، اذن بلبنها ،  
وذلك لخيره وخيرها معاً . يتدرج الطفل من الحبو الى  
النهوض على رجليه ، الى المشي المتعثر ؛ لنتركه  
يتدرج ، طبيعياً من غير ان نستعجله ، او نستاخره .  
لنراقبه ، بالطبع ، ولنحرص عليه من الحوادث التي  
يتعرض لها ، ولكن لنقصر همنا على الحراسة المتحفزة ،  
والعين الساهرة ، ولنتركه يتدبر اموره بنفسه ما استطاع  
الى ذلك سبيلاً . لا بأس عليه ان تعثر ، احياناً ، وتأم ،  
وبكى ، فانه سيفيد من اغلاطه ويتجنبها شيئاً فشيئاً .  
يبكي الولد منذ ان يرى النور ، ثم لدى كل شيء  
يزعجه . لنتركه يبكي ان لم يكن ، ثمة ، سبب جدي  
لبكائه ؛ لاننا ، ان اسرعنا الى ممالقته وتدليله لدى  
كل صرخة ، فانه لا يلبث ان يصرخ ويعول لاي سبب ،  
ويصبح اجهل طاغية... يكبر الولد ، فلنجعله يفيد من  
الحياة الريفية حيث يستطيع الركض ، والقفز في  
الهواء الطلق ، مكشوف الرأس ، حافي القدمين .  
لنذهب به الى التزهة نهاراً وليلاً ، والى العسود ،  
والسباحة ، وتسلق الأشجار . لا يصبح الولد رجلاً  
ان لم يكن في صباه عفريتاً . لنهتم ، ايضاً ، بالماء ،

ونشاركه فيها ، ونهيء له ظروفها وهذا مما يسر له كل  
السروز لولعه باللعب . بذلك نجعل الولد يكتسب جسماً  
سليماً ، مرناً ، صبوراً ، من غير ان نحتاج الى اية  
تمارين رياضية أخرى ، لاننا نكون قد هيأنا له ، في  
وقت قصير ، جميع الظروف التي كانت تسبب له في  
حالته الطبيعية وتتيح له نمواً تلقائياً .

في التربية العلمية يجب اتباع نفس المنهاج : من  
الحق حشو دماغ الولد من غير نظام ، او جملة آلة  
لإعادة تلقينات اصطلاحية ، بينما المطلوب الجوهرى هو  
« تثقيف موهبة حكمه على الاشياء » ، واعداده لتمييز  
الهدف الواجب الوصول اليه ، وللتفكير في الوسائل التي  
تبلغه اياه ، واستعمال هذه الوسائل بنظام ومنهاج . « لا  
نستطيع ان نلقن الولد كيف يجب ان يفكر بتفكيرنا ،  
نحن ، عوضاً عنه » . يجب ألا نقول له شيئاً عما يستطيع  
ان يصل اليه بوسائله الخاصة ، بل ان نهيء له  
الظروف ، فحسب . ان الحرية التي نتركها له منذ  
حدائه تسهم كثيراً في تكوينه الذهني ؛ بهذه الحرية  
نجمه يفكر في الطرائق التي ينبغي له ان يتبعها ، فيقول :  
ان انا اتبع هذه الطريقة بلغت الى ما اطلبه ، أما

ان اتبعت تلك الطريقة ، فقد أخفقت . بيد ان الحكمة  
 تقضي ، عند الحاجة الى الاسراع في سير التثقيف ،  
 بعدم انتظار الظروف تأتي كيفما اتفق لها ، بل يجب  
 على المثقف ، آنذاك ، ان يجهد في خلقها ، كأن  
 يهيء للولد مأزق حرجة ، ثم يتركه يتدبر امره في  
 الخروج منها . يحسن تشجيع الولد على ان يضع بيده  
 بعض الاشياء التي يحتاج اليها ، وان يتعلم مهنة يدوية  
 تشد ذكاهه وحذقه ، وان تُهيأ له الظروف التي تبين  
 له اهمية تلك القواعد الحسابية ، والهندسية ،  
 والميكانيكية ، التي لا يمكنه ، بدونها ، ان  
 يتعاطى ، بنجاح ، مهناً كالعمارة ، والنجارة ،  
 وصناعة الساعات ، الخ . . . ويحسن ، كذلك ، بالمعلم  
 التربوي ان يغتنم فرصة النزوات الحقلية لسكي يشرح  
 لتلميذه المشاكل الاساسية لتصنيف الانواع ، ولتكوين  
 النباتات والحيوانات ، ولتكاثرها . بهذا المنهاج ، يبلغ  
 الشاب سن الثامنة عشر من غير ان يكون قد تعلم الشيء  
 الكثير ، ولكن موهبته الانتقادية ، والحكمية ، تكون  
 قد بلغت أشدها . « انكم تلقنون تلميذكم العلوم ،  
 وحسناً تصنعون ؛ ولكني ، اهتم ، انا ، بالاداة التي من

شأنها ان تستوعب هذه العلوم .

بيد ان نتائج هذا النوع من التربية تبدو افضل ما يكون من الناحية الاخلاقية . ليس الجسد والروح سوى أداتين تتوقف قيمتها على قيمة قلب الشخص الذي يستخدمها . ان تثقيف العاطفة هو ، اذن ، التثقيف الافضل . من المسلم به ان الولد يولد مؤهلاً ، من طبيعته البشرية ، للشفقة والضمير الوجداني . غير ان الاولاد يجهاون المشاكل التي تعرض لهم ، والحلول التي تتطلبها . هنا ، ايضاً ، يجب ان 'تكشف لهم هذه المشاكل التي تعرض لهم ، والحلول التي تتطلبها . هنا ، ايضاً يجب ان تكشف لهم هذه المشاكل بدلاً من ان 'تحل لهم' مع الاتكال على ما «اودعته العناية الالهية أعماق قلوبهم ، ومع الاقتصار على ايقاظ جود الطبيعة فيهم . ليكن المؤدب متساهلاً وصارماً معاً ، وذلك بحسب ما تقتضيه الظروف ، فلا يمنع الولد شيئاً لا ضرر فيه لاحد ، ولكن ليحذر من النكوص عما رفضه له ، «غير متأثر لا بصراخه ، ولا بدموعه» . ليس على المربي ان يفرض على الولد أوامر مشددة لئلا يحمله على استعمال الحيلة والكذب لكي يبرر نفسه ان هو خالفها ، بل عليه ان يضع الولد

في حالة لا يستطيع معها ان يصنع الشيء غير المرغوب فيه؛ وعليه، كذلك ان يعرف كيف يحدد، بكلمة منتقاة، وضماً يستخلص منه المغزى الذي يتضمنه، من دون ما لجوء الى المواعظ المستطيلة . ومثلاً على ذلك : يشهد الولد شخصاً يحتدم غيظاً فيسب ، ويشتم ، ويلعن ، فيقول المؤدب عنه ، امام تلميذه : « ياله من مسكين ، انه مريض ! » ؛ ان هذه الكلمات البسيطة تكفي لوعظته ان أحسن المؤدب قولها باللهجة المطلوبة . بيد ان روسو يريد أحسن : يهيب المرابي المتنبه ظروفاً حقيقية وترتيبات موقوتة لاجل خلق عواطف معينة في نفس الولد. ايُّ منا لا يذكر الطريقة التي جعل روسو بها تلميذه اميل، بالاتفاق مع البستاني الشيخ ، يشعر بمشكلة الملكية ، وبحق كل واحد في ثمار عمله ، وبالظلم الصارخ في النظام الاجتماعي تجاه المحرومين ؟ ومن لا يذكر السياسة الرشيدة التي هياها روسو لتلميذه «اميل» لحب صوفيا قبل ان يعرفها لكي يحميه من اخطار المراهقة ، ويقوده الى قريها، كما بالمصادفة ، فيُسفِّف بحبها؟ وبما ان روسو يعلم ان الانسان لا يتعلم عمل الخير بقراءة الكتب بل بمارسته بالفعل ، لذلك يريد ان يوضع اميل باتصال مع فاقة المعوزين واوجاع المبتلين . ويريد روسو،

ايضاً ، ان يتردد اميل الى تلك الاوساط التي يعيش  
الناس فيها عيشة بسيطة شريفة ، قنوعة . أخيراً ،  
ولكي يعده لاختيار الدين « الذي يجب ان يقوده اليه  
عقله السليم » ، وبعد ان رفض اقتسابه الى اية كنيسة ،  
جعله يلاقي ، في سن الثامنة عشرة ، « النائب الاسقفي  
الساوري » .

الخلاصة : لا قسر ، ولا ضغط ، ولا فرض او امر على الولد ،  
بل وضع الثقة في غرائزه الطبيعية لكي تنمو في نفسه  
الاتجاهات السليمة ، والافكار السليمة ، والعواطف  
السليمة . « اذكر ، دائماً ، انك كاهن الطبيعة » . ان  
هذه الجملة تلخص كل منهاج روسو التربوي . ومن الطبيعي  
أنّ على المربي أن ينتبه الى سن وجنس من يربيه ،  
« فيعامل الولد ، في سن البلوغ ، بعكس ما كان  
يعامله وهو صبي » . اما الفتاة ، فعليه ان ينمي في نفسها  
حاسة الكرامة الشخصية وهذه العذوبة الضرورية  
لتحقيق المصير الذي اعدته لها الطبيعة كأنثى .

٤ — لو اردنا ان نحكم على كل فلسفة بالنسبة الى  
صحة آرائها ، وقوة براهينها ، لوجدنا فلسفة روسو  
جداً ناضجة . فاية حقيقة ، او صحة ، يتضمن وصفه

لرجل الطبيعة ؟ هل يوجد ، حقاً ، بين استعدادات  
الانسان الاول هذا الاستعداد للشفقة ، وهذا الوجدان  
الاخلاقي اللذين ينسبهما روسو اليه ؟ أصبح ان  
الوجدان الاخلاقي واحد في جميع الأزمنة والأمكنة؟  
أصبح انه مصدر رضى عن النفس ووخز ضمير يجعلان  
من لا يأبه لهما ثقياً ؟ هل تبرر براهين روسو تبريراً  
كافياً العناية الالهية من الشر الذي يجعلونها مسؤولة عنه؟  
أصبح ان الانسان يملك ارادة حرة ينكرها عليه  
فلاسفة كبار ، وان النفس تظل حية بعد موت الجسد  
مع جميع ذكرياتها ؛ وماذا نقول عن نظام روسو  
السياسي الذي يطلب من الناس الاكثر فهماً ، وجدارة  
واستقامة ، ان يضعوا مصيرهم كاملاً بين ايدي اكثرية  
جاهلة وغير مثقفة ؟ وماذا نقول ، ايضاً ، عن منهجه  
التربوي الذي لا يبلغ اهدافه الا بواسطة سلسلة من  
الحيل ، والخدع ؟

ولكننا ، لو اردنا ان نحكم على فلسفة روسو بالنسبة  
الى النفوذ الذي احرزته ، لبدلنا حكمنا عليها . ان  
( كارليل Carlyle ) ، في كتابه «الابطال» ، يصور  
لنا روسو كالمسبب الاساسي للثورة الفرنسية . انها

لمبالغة غريبة ، لان ما يشير شعباً ليس كتابياً لا يقرؤه ، او لا يفهمه هذا الشعب بل ، بالاحرى ، اوضاع حياته الاقتصادية . بيد ان ، ثمة ، شيئاً جد صحيح ، وهو أن الثوار ، بعد استيلائهم على الباستيل ، اضحى مهمهم الوحيد بناء ما كانوا قد هدموه ، فالتفت اكثرهم ثقافة حول روسو بصفته استاذاً لا يجارى . ان نظريات « العقد الاجتماعي » هي التي اصبحت مصدر موضوعات « بيان حقوق الانسان والمواطن » ، ولأن روسو اراد ان يكون للشعب ديناً ، لذلك حاولوا ان يقيموا دين العقل الاله الذي كان روبببير ، مدة من الزمن ، حبه الاعظم . ثم ان نحن نحثنا عن اصل الاندفاعات المتفائلة ، والخطب المبلة بالدموع ، والنفخحات العاطفية ، التي كان يتميز بها اعضاء الهيئة التأسيسية ، واءضاء الهيئة الاصلاحية ، لوجدناه في كتب روسو : « اميل » ، و« هيلوينز الجديدة » ، و« تأملات متزه معتزل » .

نستخلص من فلسفة روسو هذه الحقيقة المدهشة :



ليس عمق العقيدة الفلسفية « ولا صحتها ، هما  
الذين يؤمنان نفوذها في العالم بل ، بالاحرى ، اللحظة  
التاريخية التي تظهر فيها ، وملائمتها لحاجات ، واوهام ،  
وأهواء عصر معين .

اندريه كريسون

## آثار روسو الادبية

ان لروسو آثاراً ادبية ضخمة ؛ وقد ذكرنا معظمها في سيرة حياته المقتضية التي صدرنا بها هذا الكتاب ، وما نحن نعرض جدولاً بها بحسب تواريخها ، مع بعض ايضاحات عن طبعاتها . وقد اهلنا ، بقصد ، جميع مسرحياته وقطعه الموسيقية التي يجدها القارئ في طبعات آثاره الكاملة ، او في مجموعات خاصة .

- سنة ١٧٥٠ خطاب في العلوم والفنون ؛  
سنة ١٧٥٤ خطاب في عدم المساواة ، نشره مارك  
ميشال راي ، امستردام سنة ١٧٥٥ ؛

رسالة في العناية الالهية ؛	سنة ١٧٥٦
رسالة في التمثيل المسرحي ، نشرها راي ، امستردام ؛	سنة ١٧٥٨
هياوييز الجديدة ، اربعة اجزاء ، باريس ؛	سنة ١٧٥١
العقد الاجتماعي ، نشره راي في شهر نيسان ، امستردام ؛	سنة ١٧٦٢
اميل ، نشره دوشين في شهر ايار ؛ في باريس ، وجان نولم ، في امستردام ؛	
رسالة الى كريستوف دي بومونت ، نشرها راي ، امستردام ؛	سنة ١٧٦٣
وسائل من الجبل ، نشرها راي ، امستردام ؛	سنة ١٧٦٤
رسالة الى مسيو بوتافيو كو في تشويج كورسكا ؛	سنة ١٧٦٥
قاموس موسيقي ؛	سنة ١٧٦٨
ملاحظات على حكومة بولونيا ؛	سنة ١٧٧٢
( تاريخ النشر ) ، « اعترافات » ( الاجزاء الستة الاولى ) ؛ تأملات منزله معتزل ؛	سنة ١٧٨٢

سنة ١٧٩٠ ( تاريخ النشر ) ، «اعترافات» (الاجزاء  
الستة الاخيرة ) ؛  
محاورات ؛

سنة ١٨٠٥ ( تاريخ النشر ) وسائل في النباتات ؛  
سنة ١٩٢٤ - ١٩٣٧ ( تاريخ نسخ النشر ) مراسلات  
عامة ، نشرها ت . دوفور ،  
وب . ب . بلان ، في عشرين  
جزء ، على مطابع أ . كولان ،  
باريس .

طُبعت آثار روسو الادبية كاملة عدة طبعات .  
نشر طبعة منها دي بيرو ، صديق روسو ، في جنيف ،  
( ١٧٨٢ - ١٧٩٠ ) ؛ ثم موسى باقي ، طبعة في ثلاثة  
وعشرين جزءاً ، باريس ، ( ١٨١٨ - ١٨٢٠ ) ؛ ثم  
بليتتان ، اثنان وعشرون جزءاً ، باريس ( ١٨١٩ - ١٨٢٢ ) .  
وفي سنة ١٨٥٨ ، نشر ر . دي لا تور طبعة منها في  
باريس . وقد نشر ستريكينز مولتو ، في باريس ، سنة  
١٨٦١ آثار مراسلات روسو غير المنشورة قبلاً .

## منتخبات

### موضوع الجزء الاول

وُلد الانسان (١) حرأ، ولكننا نجده ، حيث كان،  
في القيود . قد يظن احد الناس انه سيد الآخرين بينما  
هو ، في الحقيقة ، عبد اكثر منهم . كيف حصل هذا  
التغير ؟ لا اعلم . ما الذي يجعله شرعياً ؟ اظن اني  
استطيع ان أجيب على هذا السؤال الاخير .

لو كنت لا اعتبر الا القوة ونتائجها ، لقلت :  
« طالما كان شعب من الشعوب مرغماً على الطاعة فأطاع ،

---

(١) هذا المقطع ، والمقاطع التي تلي ، نقلت عن «المقدالاجتماعي» .

فحسناً صنع ؛ ولكن ، حالما يستطيع ان يخلع عنه ثير  
الطاعة ، فيخلعه ، فأفضل يصنع ؛ لانه ، حينما يستعيد  
حرية بنفس الحق الذي سلبت به منه ، اي بالقوة ،  
فاما له الحق باستعادتها ، واما لم يكن لسالبها حق  
بسلبها . بيد ان النظام الاجتماعي هو حق مقدس  
وأساس لجميع الحقوق الاخرى . مع ذلك لا يأتي هذا  
الحق من الطبيعة ، بل هو مبني على اصطلاحات  
واتفاقات . فما هي هذه الاصطلاحات وهذه  
الاتفاقات ؟

### في حق الاقوى

ان الاقوى لن يكون له ابدأ القوة الكافية لكي يظل  
سائداً ، إلا اذا حول قوته الى حق ، وطاعة من يطيعه  
الى واجب . من هنا يترتب حق الاقوى : وهو حق  
يُسخر منه في الظاهر ، بينما هو ، في الحقيقة ، متخذ  
كمبدأ . ولكن ، ألا يستطيعون ان يشرحوا لنا هذه  
الكلمة « الحق » ؟ ان القوة هي قدرة مادية ولا اية  
اخلاقية يمكننا ان نستخلص من نتائجها . فالرضوخ  
للقوة فعل اجباري لا اختياري ، أو هو ، على الاكثر ،  
فعل حكمة وحذر ، فكيف يمكنه ان يكون

واجباً ؟

لنسلم ، افتراضاً ، بهذا الحق المزعوم ؛ ولكنني أجيّب بأن هذا الافتراض لا ينتج عنه سوى الاختلاط والتشويش ، لأنه حينما تكون القوة مصدر الحق تتبدل النتيجة مع تبدل السبب : فالقوة التي تتغلب على القوة السائدة تكتسب حقها أيضاً ؛ وبما أن الحق يكون دائماً ، للاقوى ، يصبح على كل من يريد أن يكون الحق له أن يكون الاقوى . ما هو ، إذن ، هذا الحق الذي يبطل حينما تزول القوة التي كانت مصدره ؟ فإن كان من الضروري إطاعة القوة من حيث هي القوة ، فإية حاجة تبقى إلى إطاعتها من قبل الواجب ؟ ألا نرى أن هذه الكلمة « الحق » ، لا تضيف شيئاً إلى القوة ، وإنما لا تعني شيئاً هنا ؟

أطيعوا السلطات . إن كان هذا القول يعني : اخضعوا للقوة ، فالقاعدة جيدة ، ولكنها زائدة : وأجيّب ، أيضاً ، بأنها لن تلقى ، أبداً ، مخالفة . إن كل سلطة تأتي من الله ، وأنا أقر بذلك ؛ ولكن كل مرض يأتي ، أيضاً ، بسأحه : فهل يعني ذلك أن استدعاء الطبيب ممنوع ؟ لتفترض أن شقياً فاجأني في إحدى الغابات :

لا شك في ان الحكمة تضطرنني الى ان اتخلى له عين  
دراهمي ؛ ولكن ، ان كنت قادراً على الاحتفاظ بها ،  
فهل يلزمني ضميري بالتخلي عنها ؟ فالبنديقية التي في يد  
الشقي هي مع ذلك ، قوة .

لنسلم ، اذن ، بان القوة ليست مصدر الحق ، وباننا  
لسنا ملزمين بان نطيع سوى السلطات الشرعية .  
ولكن ، كيف تكون السلطة شرعية ؟ هذا ما سنحاول  
الاجابة عليه .

### في العبودية

بما انه ليس لأي انسان سلطة طبيعية على ابن جنسه  
وبما ان القوة لا تتحول اي حق ، لذلك لا يبقى سوى  
الاتفاق اساساً لكل سلطة شرعية بين الناس .

قال ( غروسيوس Grotius ) ما مفاده : « ان كانت  
الفرد يستطيع ان يتنازل عن حريته ، وان يجعل نفسه  
عبداً لسيد ، فلماذا لا يستطيع شعب بكامله ان يتنازل  
عن حريته وان يجعل نفسه رعية الملك ؟ » . يوجد في هذه  
العبارة بعض كلمات تفتقر الى شرح وتوضيح ، ولكننا  
نقتصر ، هنا ، على شرح كلمة « تنازل » . تنازل يعني أعطى ،  
او باع . والجمال ، ان الانسان الذي يجعل نفسه عبداً لغيره  
لا يعطي نفسه بل يبيعها لكي يعيش على الاقل ؛ ولكن ،



لماذا يبيع شعب بكامله نفسه لملك ؟ ان الملك لا يهب افراد رعيته ما يعيشون منه بل ، بالعكس ، هو الذي يعيش مما يأخذ منهم ؛ والملك ، كما قال راهليه ، لا يعيش من شيء قليل . يبيع افراد الرعية ، اذن ، انفسهم وما يملكونه فماذا يبقى لهم ؟

قد يقول قائل ان الحاكم المستبد يؤمن لرعيته الراحة المدنية . لنفترض ذلك ؛ ولكن ، ماذا تربح رعيته ان كانت الحروب التي تجلبها عليهم مطامعه ، وان كان جشعه ، والجور الذي تسير به حكومته ، ان كان كل ذلك يرهق الرعية اكثر مما ترهقها منازعاتها ؟ ماذا تربح هذه الرعية ان كانت الراحة التي يتمتعون عليها بها هي احدى بلاياها ؟ ان السجنين يعيش مرتاحاً في سجنه ، فهل نعتبر هذه الراحة خيراً له ؟

أن يعطي الانسان نفسه لغيره مجاناً ، هذا ما لا يستطيع العقل ان يتصوره ؛ ان مثل هذا الفعل هو غير شرعي وباطل ، بمجرد ان فاعله يُعتبر غير عاقل . واذا افترضنا ان شعباً بكامله فعل ذلك ، وجب علينا ان نفترض ان هذا الشعب هو شعب مجانين ؛ والجنون لا يخلق حقاً .

لو سلمنا بان لكل فرد الحق بان يتنازل عن حريته ،  
فاننا لا نستطيع ان نسلم بان له الحق في ان يتنازل عن  
حرية ابنائه : انهم يولدون بشراً احراراً . ولكن ، قبل  
ان يبلغوا سن التمييز ، يحق للاب ان يتعاقد باسمهم لاجل  
حفظهم وخيرهم ؛ غير انه لا يحق له ان يبيعهم نهائياً بلا  
 قيد ولا شرط ، لان ذلك مضاد لغاية مصيرهم الطبيعي ،  
وخارج عن حقوق الابوة . ينبغي ، اذن ، لكل  
حكومة مطلقة ، لكي تظل حكومة شرعية ، ان يُترك  
لكل جيل الحق بان يرضى بها او يرفضها .

ان تنازل الانسان عن حريته هو تنازل عن صفته  
كإنسان ، وعن حقوق انسانية ، حتى وعن واجباتها .  
ان مثل هذا التنازل لا يتفق مع طبيعة الانسان لان  
يحرم اعماله من كل اخلاقية ، ويحرم ارادته مسن كل  
حرية . اخيراً ، ان اتفاقاً ، يشترط ، من جهة ، سلطة  
مطلقة ، ومن جهة ثانية ، خضوعاً مطلقاً ، لهو اتفاق  
متناقض وباطل . أليس من الواضح اننا لا نلتزم شيئاً  
لمن يحق لنا ان نفرض عليه كل شيء ؟ ثم اليس هذا  
العقد باطلاً من طبيعته ؟

## في وجوب الرجوع ، دائماً ، الى اتفاق اولي

يوجد فرق كبير بين اخضاع جماعة ، وادارة مجتمع .  
حينما يصير اخضاع أناس متفرقين ، مها كان عددهم ،  
اخضاعاً متتابعاً لشخص واحد ، لا يكون هناك سوى  
سيد وعبيد ، لا شعب ورئيسه ؛ ولا يكون هناك مصلحة  
عمومية ، ولا هيئة سياسية . ولو اخضع هذا السيد  
نصف العالم على هذا الوجه يظل فرداً من الافراد ، وتظل  
مصالحته ، وهي منفصلة عن مصلحة الآخرين ، مصلحة  
خاصة .

قال غروسيوس : «يستطيع اي شعب ان يسلم قيادته  
الى ملك » . وقوله شعب يعني انه كان شعباً قبل ان  
يسلم قيادته الى ملك ، ويفترض مناقشة عمومية وقراراً  
عمومياً . فقبل ان نبحث في القرار الذي انتخب به هذا  
الشعب ملكاً له ، يجدر بنا ان نبحث في القرار الذي  
اصبح به هذا الشعب شعباً لان هذا القرار هو السابق  
وهو اساس المجتمع .

لم يكن بد من وجود اتفاق سابق بين افراد هذا  
الشعب تخضع بموجبه الاقلية لقرار الاكثرية . بيد ان  
هذا الاتفاق الاولي كان لا بد له من ان يكون قد

اتخذ بالاجماع .

### في الميثاق الاجتماعي

أفترض ، الآن ، بلوغ أناس الطبيعة ، يوماً من الأيام ، الى حالة جديدة تحسول الصعوبات فيها دون إمكان البقاء في حالة الطبيعة ؛

وبما ان الناس لا يستطيعون خلق قوى جديدة ، بل ضم وتوجيه القوى التي يملكونها لكي يذللوا العقبات التي تعترض معيشتهم ، فقد تجمعوا واتحدوا اضطراراً . ولكن ، كيف يتنازل الانسان عن مقدرته وحرية ، وهما أداتا بقائه ، من غير ان يعمل الاعتناء بنفسه ؟ اني اضع هذه المشكلة في الصيغة التالية :

« ايجاد شكل شراكة يحمي ، بجميع القوى المشتركة ، شخصاً ومقتنى كل عضو ؛ وبما ان كل عضو ينضم ، في هذه الشراكة ، الى جميع الاعضاء حتى يصبح الجميع 'كلاً' واحداً ، لذلك هو لا يخضع إلا لارادته ، ويظل حراً كما في السابق ، . هذه المشكلة الاساسية التي يحاول العقد الاجتماعي حلها .

ان شروط هذا العقد تحددها طبيعة الصك . تحديداً بحيث ان اقل تبديل يطرأ عليها يجعلها باطلة وعديمة

الفاعلية: تكون، اذن ، هذه الشروط ، ضمناً ، واحدة في كل مكان، ومسلماً بها من الجميع ، حتى ولو لم يكن قد نص عليها من قبل الى ان يُنقَضَ العقد، حينئذٍ يسترجع كل فرد حقوقه وحرية الطبيعية .

تتلخص هذه الشروط ، طبعاً ، بشرط واحد ، وهو : تنازل كل شخص ، مع جميع حقوقه ، تنازلاً تاماً ، لكل الهيئة الاجتماعية ، وبذلك تكون جميع الاوضاع متساوية بين افراد هذه الهيئة .

• • •

ان نحن حذفنا من العقد الاجتماعي ما ليس جوهرياً فيه وجدناه يتلخص في ما يلي : « كل فرد من افراد المجتمع الواحد يضع شخصه وجميع قواه تحت تصرف الارادة العامة العليا ويكون جزءاً لا يتجزأ من المجموع الواحد » .

هكذا يؤلف الافراد هيئة معنوية وجماعية من اصوات متساوية ، فتأخذ هذه الهيئة من قرار افرادها وحدتها ، وحياتها ، وارادتها ، واسمها ، سواء أكان هذا الاسم مملكة ، ام جمهورية ، ام اتحاد جمهوري ، ام غير ذلك .

## في القانون

ان ما هو صالح ومطابق لروح النظام لا يكون كذلك الا بطبيعة الاشياء ذاتها ، وباستقلاله عن الاصطلاحات البشرية . كل عدالة تأتي من الله ، فهو وحده مصدرها ؛ ولكن ، لو كنا نعرف ان نقتلها من هذا المقام السامي كما يجب ، لما كنا في حاجة الى حكومة وقوانين . لا شك في وجود عدالة شاملة تصدر عن العقل وحده ، ولكن هذه العدالة ، لكي نسلم بها ، يجب ان تكون متبادلة . ثم ، ان نحن نظرنا الى الاشياء من الناحية البشرية وجدنا ان قوانين العدالة الطبيعية تظل لاغية بين البشر لعدم وجود عقوبات طبيعية تثبتها ، فينعم بها الاشرار الذين لا يحترمونها ، ويشقى بها الاخيار الذين يحترمونها . لذلك يجب اللجوء الى اتفاقات وقوانين ، بين البشر ، تضم الحقوق المحددة الى الواجبات المحددة لكي تصل بالعدالة الى غايتها .

ولكن ، ما هو القانون ؟ لا يكون القانون قانوناً حقيقياً الا حينما تكون غايته المصلحة العمومية ، لا مصلحة فرد ، او افراد ، مهما بلغ عددهم . فحينما

يصدر كل الشعب قانوناً لكل الشعب ، بلا استثناء ،  
حينئذ يكون القانون عاماً كالارادة التي اصدرته . هذا  
ما اسميه قانوناً .

•••

أطلق اسم جمهورية على كل دولة تسودها القوانين  
مهما كان شكل ادارة هذه الدولة: لأن المصلحة العمومية  
هي التي تحكم ، وحدها ، آنذاك ، تلك الدولة . ان  
كل دولة شرعية تدعى جمهورية ، لان الارادة العامة  
هي التي تحكمها ؛ والارادة العامة هي القانون الشرعي .

### في المشرع

لاجل اكتشاف افضل القواعد الاجتماعية التي تلائم  
الاعم ، يلزم عقل سام يفهم جميع امواء البشر  
وشهواتهم ، من غير ان يكون له ، هو ، مثل الاهواء  
والشهوات ، ومن غير ان يكون له ارتباط بطبيعتنا  
بينما هو يدرك اعماقها ، ومن غير ان تحتاج سعادتته  
الينا ، ومع ذلك يهتم بنا . يلزم آلهة لكي يسنوا  
شرائع للبشر .

•••

ان الذي يريد ان يصنع شعباً يجب ان يكون

بإمكانه ان يغير الطبيعة البشرية ، وان يحسول كل فرد من حالة الوحدة والانزلال الى حالة جزء من كل قوى يستمد منه هذا الفرد حياته وكيانه الاجتماعي ؛ وان يكون بإمكانه ان يحل تركيب وضع الفرد الاولي لكي يعيده اكثر قوة ؛ وبالاختصار ، يجب عليه ان يضم قوى الفرد الى قوى الجماعة لكي يجعل من هذه القوى كلا متضامنا اكمل واقوى بقدر انصار الافراد المتفرقين في المجموع الواحد .

### في الشعب

كما ان الباني يبحث ، قبل ان يقيم البناء ، عن متانة الارض التي يريد ان يبني عليها لكي يرى هل تستطيع ان تحمل البناء الذي صممه ، هكذا يجب على المشرع الحكيم ، قبل ان يضع شرائع صالحة بحد ذاتها ، ان يبحث عن قابلية الشعب لتلك الشرائع بعينها التي يشترعها له .

...

الوف الامم لمعت على الارض من غير ان تستطيع احتمال شرائع جيدة ؛ والامم التي استطاعت ذلك لم تستطع الا مدة قصيرة من تاريخها الطويل . ان معظم



الشعوب ، وهي في ذلك كمعظم الناس ، لا ليونة  
عندها الا في عهد شبابها ، ولكنها تصبح غير قابلة  
للاصلاح حينما تشيخ . فيوم تترسخ عاداتها ، وتتصلب  
آراؤها ، يصبح من العبث ان تحاول اصلاحها . فالشعب  
لا يريد ان 'تمس ادواؤه وتعالج ، وهو أشبه في ذلك  
بهؤلاء المرضى الجهال ، الجبناء ، الذين يرتسعون  
من رؤية الطبيب . ولكن ، كما ان بعض الامراض  
تهيج ، في بعض الاحيان ، رؤوس المرضى ، كذلك  
يمر ، احيانا ، في تاريخ الدول ، عهد هيجان حيث  
تفعل الثورة بالشعب ما يفعله البحران بعقل المريض ،  
وحيث الدولة ، بعد ان تشتعل في داخلها نيران الحروب  
الاهلية ، تنبعث من رمادها ، وتستعيد نشاط شبابها  
وهي خارجة من بين ذراعي الموت . هكذا حدث  
لمدينة سبرطة في عهد مشرعها ليكورغ ؛ وهكذا حدث  
لروما بعد ملوكها (التركين (Tarquins) ؛ وهكذا  
حدث لهولندا ولويسرا بعد طرد الطفافة .

غير ان هذه الاحداث نادرة الوقوع ؛ انها شواذات  
تتصل جذورها بدستور الدولة نفسه ، ولكنها قد لا  
تقع مرتين لذات الشعب ، لان الشعب يستطيع ان

يتحرر وهو لا يزال في طور التكوين ، ولكنه لا يستطيع ذلك بعد بلوغه سن الشيخوخة ؛ حينئذ يمكن للاضطرابات ان تهدمه من غير ان تستطيع الثورات النهوض به ، لانه حينما تتكسر قيوده يقع ، آنذاك ، متفتتاً ؛ وحينئذ يصبح في حاجة الى سيد ، لا الى محرر . ايتها الشعوب ، اذكري دائماً انك «تستطيعين ان تمتلكي الحرية ، ولكنك لا تستطيعين بعثها» .

### في انواع التشريع المختلفة

لو اردنا ان نعرف بماذا يقوم ، بالضبط ، اكبر حيز ممكن للجميع ، وهو الحيز الذي يتوخاه كل نوع من التشريع ، لوجدناه ينحصر في موضوعين رئيسيين : الحرية ، والمساواة ؛ الحرية ، لان كل تبعية خاصة هي قوة تفقدها الدولة ؛ والمساواة ، لأن الحرية لا تثبت خارجاً عنها .

لقد قلت ، سابقاً ، ما هي الحرية المدنية ؛ اما في ما يتعلق بالمساواة ، فلا يجب ان نفهم بهذه الكلمة ان درجات المقدره والغنى تكون متساوية . مساواة مطلقه ؛ بل ان تكون المقدره خالية من العنف ، وألا تُمارَس إلا بحسب الدرجة وبموجب القوانين ؛ وألا

يخول الغنى صاحبه القدرة على شراء الآخرين وألا  
يخوج الفقر صاحبه الى بيع نفسه من الآخرين : ليخفف  
القوي من غلوائه ، والغني من جشعه ، والضعيف من  
حقده ، والفقير من حسده .

قد يقول قائل ان هذه المساواة التي تقول بها لا توجد  
الا في الخيال . لو فرضنا ان ذلك صحيح ، وان  
الافراط لا بد منه ؛ ألا يجب ، لذلك ، ان نضع حداً  
لهذا الافراط ؟ بالعكس : بما ان طبيعة الاشياء تجنح الى  
هدم المساواة ، لذلك يجب ان يجهد التشريع في  
الحفاظ عليها .

### في الحكومة اجمالاً

ألفت انتباه القارئ الى وجوب قراءة هذا الفصل  
بروية ، والى اني لا املك موهبة الوضوح إزاء من  
لا يريد ان يتأمل .

لكل فعل حر سببان ؛ الاول اخلاقي ، وهو الارادة  
التي تقرر الفعل ، والثاني مادي ، وهو القوة التي تنفذه .  
حينما امشي باتجاه شيء ما يلزمني ، أولاً ، ان اريد ان  
امشي باتجاه هذا الشيء ، وثانياً ، ان تستطيع رجلاي  
ان تحملني . أن يريد الكسيح ان يمشي ، وأن لا يريد

النشيط ذلك ، فكلامها يظلال مكانها ؛ والهيئة السياسية ذات الاسباب : الارادة والمقدرة : الاولى 'تدعى ' السلطة التشريعية ، والثانية تدعى ' السلطة التنفيذية ' .

قلنا ان السلطة التشريعية لا تكون الا من حثق الشعب ، ومن حثق الشعب وحده ؛ اما السلطة التنفيذية ، فبا ان مهمتها وأعمالها لا تشمل العموم كالشرائع ، يجب ان 'تناط بهيئة خاصة تضم القوة العامة وتمارسها بحسب توجيه الارادة العامة . هذا هو سبب وجوب الحكومة في الدولة ، وسبب تمييز السلطة التشريعية من السلطة التنفيذية .

ما هي ، اذن ، الحكومة ؟ انها هيئة وسيطة بين المواطنين وبين الهيئة التشريعية ، وقوة معهود اليها في تنفيذ القانون وحماية الحرية المدنية والسياسية .

### في الديموقراطية

لا يحسن ان 'ينتمذ القوانين مصدرها ، ولا أن يجيد اقتباه الشعب عن الشؤون العمومية الى الشؤون الخاصة . لا شيء أشد خطراً من تأثير المصالح الخاصة بالمصالح العمومية . ان سوء استعمال الحكومة للقوانين

يظل أخف وطأة من فساد الاشتراة من جراء سيطرة  
وجهاة النظر الخاصة التي تززع اساس الدولة وتجعل  
كل اصلاح مستحيلاً .

لم يوجد في التاريخ ديموقراطية تامة بكل معنى  
الكلمة ، ولن يكون . ليس من الطبيعي ان تتحكم  
الاکثرية بالاقلية ، ولا يمكن للشعب ان يتفرغ ، بصورة  
متواصلة ، لكي يعالج مشاكله العمومية .

الحكومة الفضلى يجب ان تجمع الصفات التالية :  
اولاً ، دولة جد صغيرة حيث يسهل اجتماع الشعب  
وحيث يستطيع كل مواطن ان يعرف مواطنيه ؛ ثانياً ،  
بساطة كلية في العادات والتقاليد تحول دون تراكم  
الاشغال وحادثة المناقشات ؛ ثالثاً ، اكبر مساواة ممكنة  
بين المقامات والثروات ؛ رابعاً ، عدم البذخ ، لأن  
البذخ إما ان يكون نتيجة لتضخم الثروات ، وإما ان  
يكون دافعاً الى البحث عنها ؛ انه يفسد الغني والفقير  
معاً : الاول بالجشع ، والثاني بالحسد ، ويغري المواطنين  
بالكسل والفتخفة ، وبالتسلط بعضهم على بعض .

لذلك نرى كاتباً اجتماعياً كبيراً قد وضع الفضيلة  
كهدأ اساسي للحكومة الجمهورية ، لأن جميع هذه الصفات

لا يمكنها ان تثبت خارجاً عن الفضيحة . ثم ان الحكومة  
الديموقراطية ، او الشعبية ، هي اكثر الحكومات عرضة  
للحروب الاهلية وللاضطرابات الداخلية لانها تنزع  
دائماً نزوعاً قوياً الى تغيير شكلها وتتطلب جهوداً كبيرة  
لكي تستطيع ان تثبت طويلاً في شكل واحد .  
لو كان يوجد شعب مؤلف من آلهة لاختر الحكم  
الديموقراطي ؛ اما البشر ، فلا يلائهم هذا والحكم  
لسبب كاله .

في ان وضع كل بلد يتطلب  
شكل حكومة خاص به

بما ان الحرية لا تثبت في جميع المناخات ، لذلك لا  
يستطيع كل بلد ان يحصل عليها . بقدر ما تتأمل في  
هذا المبدأ الذي وضعه مونتسكيو ، بقدر ذلك نشعر  
بحقيقته .

في جميع حكومات العالم ، يستهلك موظفو الدولة  
من غير ان ينتجوا . من اين تأنيها ، اذن ، مواد  
الاستهلاك ؟ من عمل شعبها حيث الفائض عن الافراد  
يعطي الدولة ما تحتاج اليه . والحال ، ان هذا الفائض  
يختلف من بلد الى آخر ، فيكون وفراً في بعض البلدان ،  
وقليلاً في البعض الآخر ، او معدوماً ، او سلبياً ،

وذلك بالنسبة الى خصب تربة كل بلد ، والى نوع العمل الذي تتطلبه ، والى نوع ما تنتجه ، والى حذق سكان هذا البلد ، والى مقدار ما يستهلكونه ، الخ . . .

ثم ان أشكال الحكومات يختلف بعضها عن بعض ؛ فمنها ما يتطلب نفقات باهظة ومنها ما يكفي بنفقات معتدلة . ليس المهم في اقتصاد البلاد مقدار الضرائب التي تفرضها الحكومة ، بل نوع استعمالها ؛ فبقدر ما تخدم احتياجات البلد تزيد في ثروته ، وبقدر ما تخدم مصالح الافراد تفقره . في النظام الديموقراطي ، تكون الضرائب خفيفة على كاهل الشعب ؛ وفي النظام الارستقراطي ، اكثر ثقلا ؛ وفي النظام الملكي ، باهظة . فالنظام الملكي لا يلائم الا الامم الغنية ؛ والنظام الارستقراطي يلائم الدول المعتدلة الثروة والمساحة ؛ والنظام الديموقراطي يلائم الدول الصغيرة والفقيرة .

**في ان الارادة العامة هي اساس الحكم**

طالما اعتبر جمهور من الاشخاص نفسه هيئة واحدة ، لا يبقى له في غايته المشتركة سوى ارادة واحدة ، وهذه الغاية تتعلق بالبقاء المشترك والرخاء العام ؛ حينئذ يكون عصب الدولة قويا ، وخططها واضحة ،

بعيدة عن كل غموض وتناقض ، فالسلام ، والأمن ، والاتحاد ، والمساراة ، جميعها اشياء تتنافى والحذقات السياسية ؛ والناس المستقيمون ، البسطاء ، يصعب على الخادع ان يخدعهم ، وذلك لبساطة مقاصدهم ووضوحها . حينما ترى عند اسعد شعب في العالم فئات من القرويين يديرون شؤون الدولة تحت السنديانة بحكمة وحرصانة ، هل تستطيع ، آنذاك ، ألا تحقر تحذلق الشعوب الاخرى التي تشتهر وتشتفي في آن واحد بفنونها واسرارها؟ لا يحتاج ذلك الشعب السعيد الا الى القليل من القوانين التي تتضح له بكامله حالما تمس الحاجة اليها ، فيصدرها في الوقت المناسب بكل سهولة من غير عنف مجادلات ، ولا فصاحة خطابات .

• • •

ولكن ، حينما يبدأ الرباط الاجتماعي يرتخي ، والدولة تضعف ، والمصالح الخاصة تستفحل ، والكتل الصغيرة تزداد نفوذاً ، حينئذ يتضعص الصالح العام ويلقى معارضين ، وتتجزأ الارادة التي كانت الارادة العامة ، وتكثر المجادلات والمشاحنات ، ويزداد التناقض . اخيراً ، حينما تقرب الدولة من الانهيار ، وينقطع



للرباط الاجتماعي في جميع القلوب ، وقتتحل المصالح الخاصة ، بوقاحة ، صفة الصالح العام المقدس ، حينئذ تصمت الارادة العامة ، وينقاد الجميع وراء اهداف مسترة ، ويصبحون مواطنين زائفين لا وطن لهم الا بالاسم ، حينئذ تصدر القوانين الجائزة التي تخدم مصالح الافراد وتضرب بالمصلحة العامة عرض الحائط .

### في الدكتاتورية

ان تصلب القوانين الذي يمنعها من مجارة الاحداث يستطيع ، احيانا ، ان يجعل هذه القوانين ضارة وخطرة على مصير الدولة . لا يُتاح لاي مشرع ان يحتاط لجميع الاحوال الكامنة في ضمير الغيب ، لذلك ينبغي له ان يضع في الشرائع التي يسنها مرونة كافية لتدارك الظروف المفاجئة .

اما الاخطار التي تطرأ على الدولة مهددة كيانها ، فهي وحدها التي تستطيع ان تجعد القوانين والشرائع حينما يتطلب الذود عن حياض الوطن تجميدها ، وتلقي بزمام الامور ، جميعها ، الى الاكثر جسدية بقيادة الوطن الى ميناء الخلاص ، لان هذا الهدف هو ، بلا ريب ، امنية جميع المواطنين وبغية الارادة العامة . بيد

ان هذه السلطة الاستثنائية يجب ان تزول بزوال الظروف والاحطار التي فرضتها ، لانها ان استمرت وتمادت قد لا تلبث ان تصبح دكتاتورية وطفيانا .  
في الدين المدني

يمكننا ان نعتبر الدين ، بالنسبة الى المجتمع ، على نوعين : دين الفرد ، ودين المواطن . فالاول لا يباكل له ، ولا مذابح ، ولا طقوس ؛ انه يقتصر على عبادة الله الاعظم عبادة باطنية صرفاً ، وعلى الواجبات الاخلاقية الازلية . هذا هو دين الانجيل المحض ، وهو ما يمكننا ان نسميه الحق الالهي الطبيعي . والثاني يعطي البلد الذي يدين به آلهته ، وأوليائه ، ومعتقداته ، وطقوسه ، وعبادته الخارجية المنصوص عليها في القوانين ، ويعتبر كل من لا يدين به كافراً ، اجنبياً ، متوحشاً ، ويحصر جميع الحقوق والواجبات في شرائعه . هكذا كانت اديان الشعوب الاولى ، وهي اديان يمكننا ان نسميها الحقوق الالهية المدنية او الوضعية .

يوجد ، ايضاً ، نوع آخر من الاديان يضع للناس مشتركين اثنين ، ورئيسيين ، ووطنيين ، ويخضعهم لواجبات متناقضة ، وينعمهم من ان يكونوا ، في وقت

واحد ، متدينين ومواطنين . هكذا هو دين اللاما في التبت ، ودين اليابانيين ، ودين المسيحية الرومانية التي يمكننا ان نسميها دين الكاهن . ينتج من مثل هذه الاديان نوع من الحقوق المختلطة ؛ واذا نظرنا الى هذه الاديان من الوجة السياسية ، وجدنا لكل منها عيوبه : ان كل ما ينقص الوحدة الاجتماعية لا يساوي شيئاً ، وان جميع المؤسسات التي تجعل الانسان يناقض نفسه بنفسه لا تساوي شيئاً .

نجد النوع الثاني من الدين حسناً من جهة جمعه العبادة الالهية الى حب القوانين والشرائع ، وجعله الوطن موضوع احترام فائق للمواطنين ، وتعليمهم ان خدمة الدولة هي خدمة الاله الذي تؤمن به وتلجأ اليه . انه نظام سلطة الهية في الدولة لا حبر اعظم فيها سوى رئيس الدولة ، ولا كهنة سوى قضاتها . حينئذ يصبح الموت من اجل الدولة استشهاداً ، ومخالفة الشرائع والقوانين ، كفراً .

ولكن عيبه الأكبر هو كونه مبنياً على الضلال والكذب فيخدع البشر ويحلمهم سذجاً خرافيين ، ويفرق عبادة الله الحقيقية في خضم احتفالات وطقوس باطلة .

وعليه الثاني هو انه، حينما يصبح متعصباً «مستبداً» يجعل  
شعبه سفاهاً لا تساهل عنده، محبباً للقتل ولسفك  
الدماء، معتقداً بان كل من لا يؤمن بدينه هو كافر  
وقته محلل بل عمل مقدس .

يبقى ، اذن ، دين الفرد او المسيحية ، لا مسيحية  
اليوم ، بل مسيحية الانجيل : يكون الناس بموجب تعاليم  
هذا الدين المقدس ، السامي ، الحقيقي ، ابناء اله واحد ،  
وهم جميعهم اخوة ، يضمهم مجتمع لا ينحل حتى بعد  
الموت .

ولكن ، بما ان هذا الدين لا علاقة خاصة له بالهيئة  
السياسية ، فهو يترك للشرائع القوة الوحيدة التي تستمد  
من نفسها ، من غير ان يضيف اليها شيئاً ، من عنده ؛  
وبذلك يفقد المجتمع الخاص أحد أقوى رباطاته . وعلاوة  
على ذلك ، فان هذا الدين لا يسهم الاسهام الكافي في  
تحبب الدولة الى قلوب بنينا بل بالاحرى ، يحاول منع  
هذه القلوب من التعلق باشياء الارض الزائلة .

يقولون لنا ان شعباً مؤلفاً من مسيحين حقيقيين  
يستطيع ان يشكل اكمل مجتمع ممكن . فانا لا ارى  
شيئاً يحول دون صحة هذا الافتراض ، ودون تحقيقه ،

سوى صعوبة واحدة وهي ان مجتمعا مؤلفاً من مسيحيين حقيقيين لا يستطيعه بشر ؛ واني ازيد على ذلك قولي ان مجتمعا مثل هذا المجتمع المفترض لن يكون ، بالرغم من كماله او ، بالاحرى ، لسبب كماله ، لا المجتمع الاقوى ، ولا المجتمع الاثبت .

صحيح ان كل مواطن في هذا المجتمع يقوم بواجبه ، ويكون الشعب فيه خاضعاً للقوانين ؛ والرؤساء ، عادلين ومعتدلين ؛ والقضاة نزهاء ، اعفاء ؛ ويحتقر الجنود الموت ؛ ولن يكون ، ثمة ، فخفخة ، ولا بذخ ؛ كل ذلك حسن جداً ؛ ولكن لتنظر الى ابعده . ان الدين المسيحي دين روحي صرفاً لا يهتم الا للأشياء السماوية ؛ ان وطن المسيحي ليس من هذا العالم . صحيح ان المسيحي يقوم بواجبه ويبدل جهوده في سبيله ، ولكن تجاح هذه الجهود او فشلها سيان عنده ما دام ضميره لا يبيكته في شيء .

لكي يسود السلام المجتمع ويستتب الأمن فيه ، يجب ان يكون جميع المواطنين ، بدون استثناء ، مسيحيين حقيقيين ؛ ولكن ، ان وُجد بينهم ، لسوء الحظ ، طماع واحد ، مثل كاتيلينا الروماني ، مثلاً ، او كرومويل الانكليزي ؛ وان وُجد بينهم منافق واحد ،

فلا اسهل عليه من ان يخدع مواطنيه ويبتز اموالهم ،  
ويخون ثقتهم به ، لان المحبة المسيحية لا تساعد على  
الشك في حسن نية القريب ؛ وقد يتوصل الى حكمهم  
فيصبح السلطة الحاكمة التي يأمر الله بإطاعتها واحترامها ؛  
واذا ظلمهم وجار عليهم ، قالوا هذه عصا الله يؤدب بها  
ابنائه ؛ واذا فكر بعضهم بالثورة عليه ، قال الآخرون :  
لا ، ان الثورة تشيع الاضطراب في البلاد ، وتريق  
الدماء ، وهذا ما يتنافى والعذوبة المسيحية ؛ وبعد كل  
شيء ، ما هم ان يكون الانسان حراً ، او مستعبداً ،  
في هذا الوادي ، وادي الدموع ؟ المهم ان يدخل الجنة ،  
والتسليم لارادة الله هو احدى الوسائل التي تنيله هذه الغاية .

في حالة حرب مع دولة معتدية ، يمشي المسيحي بلا  
عناء الى القتال ، فلا يفكر احد منهم في الفرار ؛ انهم  
يقومون جميعهم بواجباتهم ، ولكنهم يعرفون كيف  
يموتون اكثر مما يعرفون كيف يغلبون ، او كيف  
يقتلون ؛ وهذا مما يستطيع عدوهم ان يستغله الى اقصى  
حد ان كان على شيء من الدهاء . ضع إزاء مسيحيك  
تلك الشعوب التي يتأكلها حب المجد ، وضع جمهوريتك  
المسيحية إزاء جمهورية سبرطة ، او رومة ، فلن يكون

النصر ؟ انني اذكر ، هنا ، ذلك القسم المعجيب الذي حاف به جنود القائد الروماني فايوس ، متعهدين فيه ، لا بأن ينتصروا او يموتوا ، بل بأن يعودوا منتصرين ، وهكذا فعلوا . هل يمكن للمسيحيين ان يدلوا بمثل هذا القسم ؟ لا ، انهم يجربون به الله .

ولكنني اخطىء حينما اقول جمهورية مسيحية ، لان كل كلمة من هاتين الكلمتين تنفي الاخرى ، لأن المسألة المسيحية تسهل ظهور الاستبداد والظلم ، ولأن هذه الحياة الزائلة لا قيمة لها ، بذاتها ، في نظر المسيحي ، بل قيمتها تنتج من كونها واسطة لاجل اكتساب الحياة الاخرى .

•••

هم الدولة ان يكون لكل مواطن دين يدفعه الى القيام بواجباته ؛ غير ان معتقدات هذا الدين لا تهتم الدولة الا بمقدار ما تتعلق هذه المعتقدات بالاخلاق وبالواجبات التي يتحتم على من يدين بها تسميها في هذه الحياة تجاه الغير ؛ اما الحياة الأخرى فلا علاقة للدولة المدنية بها .

يوجد ، اذن ، قانون ايمان مدني يحدر بالدولة ان

تحدد قضاياها ، لا بصفتها قضايا دينية بكل معنى الكلمة ، بل بصفتها عواطف اجتماعية لا يمكن للمواطن ، خارجاً عنها ، ان يكون مواطناً حقيقياً . صحيح ان الدولة لا تستطيع ان ترغب احداً على الايمان بهذه المعتقدات المدنية ، لكنها تستطيع ان تخرج من اراضيها من لا يعمل بموجبها .

يجب ان تكون عقائد الدين المدني بسيطة ، قليلة العدد ، مضبوطة المعنى ، صريحة ، من غير ما تقاسير ولا تعاليق . واليك عقائده الايجابية : وجود الالهية القديرة ، العليمة ، الصالحة ، المستدركة ، المانحة ، ثم الحياة الثافية ، سعادة الاخيار ، عقاب الاشرار ، قداسة العقد الاجتماعي . اما العقائد السلبية اي التي يجب نبذها فاني احصرها بواحدة : التعصب .

يخطيء من يميز التعصب المدني من التعصب الديني ، لان هذين التعصبين لا يفترقان : لا يمكنكم ان تعيشوا بسلام مع قوم يجعلهم دينهم يعتقدون بانكم من الهالكين ؛ واذا احببواكم ؛ ظنوا انهم يعصون الله ، ويتحدونه ؛ لذلك يرون من الواجب إما فرض دينهم عليكم ، وإما اضطرادكم حينما يستطيعون . ثم ، لا بد للتعصب الديني ،



حيثما وُجد ، من التأثير بالحياة المدنية تأثيراً قد يجعل  
الروساء الدينيين يحلون محل الروساء المدنيين .

أما الآن ، وقد شُجِب كل دين اجتماعي تعصبي ،  
كالذي جئنا على وضعه اعلاه ، ولم يعد المجتمع يتحمل  
مثل هذا الدين ، لذلك يجب على المجتمع أن يتسامح مع  
كل دين يتسامح مع جميع الأديان الأخرى ، و لا يحصر  
الحقيقة في معتقداته .

### إنطاق روح فبريشيوس

كان سقراط قد بدأ في أثينا ( ١ ) ، وكأون الروماني  
الشيخ قد واصل في روما ما بدأه سقراط في أثينا :  
كان الرجلان الحكيمان يحاول كل منهما أن يصلح شعبه :  
هاجم سقراط أولئك اليونانيين المتفلسفين ، المتحذلقين ،  
الذين كانوا يندعون البسطاء بدهائهم ، ويصرفونهم  
عن فضيلتهم ، ويفتون في عضدهم . بيد أن الداء كان  
قد تفاقم في روما حيث كانت المسوم ، والفنون ،  
والمجاذلات ، قد استفحلت : امتلأت روما فلاسفة  
وخطباء ، وتراخى النظام المسكري ، واحتقرت الزراعة ؛

---

( ١ ) من خطاب في السؤال التالي : « هل أسبت نهضة المسوم  
والفنون في تطهير الاخلاق ؟ » .

وأهل الوطن؛ وحل اسم ابيقور، وزينون، وارسليناس،  
حل اسم الحرية والنزاهة ، والأمانة المدنية . كانت  
فلاسفتهم انفسهم يقولون : « منذ أن بدأ العلماء يظهرون  
فيما بيننا ، توارى عنا الناس الصالحون » . كان  
الرومانيون ، في الامس ، يكتفون بممارسة الفضيحة ،  
لكنهم اضاعوا كل شيء حينما اخذوا يبحثون فيها .

فبريشيوس ، فبريشيوس ! ماذا كانت قالت روحك  
الكبيرة لو عدت ، لسوء حظك ، الى الحياة ورأيت تبرز  
وجه روما التي انقذتها بذراعك من غضب هنيبعل ،  
والتي مجدها اسمك اكثر مما مجدها فتوحاتها؟ انك لكنت  
هتفت : « ايتها الالهة ! ماذا حل بتلك الاكسواخ  
المتواضعة التي كانت الفضيحة تسكنها؟ ما هذه الفخفخة  
المشؤومة التي حلت محل البساطة الرومانية ؟ ما هذه  
اللغة التي لا افهمها؟ ما هذه الاخلاق المتخنة؟ ما معنى  
هذه التماثيل وهذه الصور ، وهذه البنائيات؟ ايها الجهال ،  
ماذا صنعتم ؟ انتم ، يا اسياد العالم ، لقد جعلتم انفسكم  
عييداً لأولئك الناس المتخثين الذين غلبتموهم ! ان الخطباء  
والفصحساء هم الذين يحكمونكم اليوم ! الكي يثري  
المهندسون ، والرسامون ، والمشعوذون ، سقيتم ارض

اليونان وآسيا بدمائكم ؟ لقد أصبحت اسلاب قرطاجة  
فريسة لناقح في مزمار ! ايها الرومانيون ، أمرعوا  
في هدم هذه المسارح ، وفي حطم هذا الرخام ، وفي  
إحراق هذه الصور ، وفي طرد هؤلاء العبيد الذين  
اخضعتموهم بحسد السيف ، والذي افسدتم فنونهم  
المشؤومة . لتلمع اياد غير اياديكم بالفنون الباطلة ، ان  
الفن الوحيد الذي يليق بالروماني هو فن فتح العالم لكي  
تسود فيه الفضيلة : حينما ظن سينياس مجلس شيوخنا  
مجلس ملوك ، لم تكن قد بهرتسه فخفخة باطلة ، او  
فصاحة منمقة . ماذا رأى سينياس ، اذن ، في مجلس  
شيوخنا من عجب ؟ ايها الرومانيون ! لقد رأى مشهداً  
لا تستطيع ان تأتي به ثرواتكم وفنونكم ؛ لقد رأى اجمل  
مشهد ظهر تحت السماء : ندوة مؤلفة من مائتي رجس  
فانجل ، جديرين بقيادة روما ، وبحكم الأرض .

ولكن ، تعالوا نتخطى ، نحن ، ابناء اليوم المسافات  
والأزمنة لكي نرى ماذا جرى في اقطارنا وعلى مرأى  
من اعيننا . لم الجأ ، عبثاً ، الى مناجاة روح فبريشيوس  
لأنني ، بماذا كنت استطيع ان أنطق هذا الرجل العظيم ،  
ولا استطيع ان أنطق به لويس الثاني عشر ، او

هنري الرابع ؟ صحيح ان سقراط لم يكن مُحكم عليه بشرب سم الشوكران في ايامنا هذه ، لكنه كان شرب ، في كأس اشد مرارة ، السخرية المهينة ، والاحتقار الذي هو ابشع من الموت .

هكذا كان البذخ ، والانحلال الاخلاقي ، والانفاس في الشهوات المتفنتة ، في كل عصر ، عقاب الجهود المتكبرة التي بذلناها في سبيل الخروج من البساطنة السعيدة حيث كانت الحكمة الازلية قد وضعتنا . ان الغشاء الكثيف الذي ألقته هذه الحكمة على كل ما تضعه يبدو كأنه تحذير تبين لنا فيه انها لم تهيننا لاجاث باطلا .

ولكن ، هل أفدنا من اي درس لغنتنا اياه هذه الحكمة ؟ ام هل أهملنا العمى بموجب اي درس من دروسها ولم نلق عقابنا ؟ يا شعوب الارض ، اعلمي ، ولو مرة واحدة ، ان الطبيعة شاءت ان تبعد عنا خطر العلم كالأم التي تتشل سلاحاً خطراً من يد ولدها ؛ وان الاسرار التي تخفيها عنا ليست سوى مهار تريد ان تكفيها شرها ؛ وان العناية الذي تلقاه في تحصيل العلوم هو منة علينا منها . اجل ، ان الانسان ناقص ، لكنه ، لو ولد عالماً ، لكان اشد نقصاً .

## خطر الفلسفة

ان التعمق في الفلسفة (١) يقضي الى تراخي رباطات الاحترام والاكترام بين البشر ، هذه الرباطات التي تصل الناس بالمجتمع . هذا هو خطر الفلسفة : ان من تعلق بالفلسفة تفردت الفلسفة بارضائه . ثم ان الفيلسوف الذي يبذل جهده في سبر غور البشرية ، وفي مراقبة الناس ودرس احوالهم واخلاقهم ، يتعلم ألا يقدرهم الا قدر ما يستحقون ، اي الشيء القليل ؛ ولا شك في ان الانسان لا يستطيع ان يحب ما يحقره . ثم ، ان الفيلسوف لا يلبث ان يجمع في شخصه ما يتقاسمه الناس الصالحون فيما بينهم وبين بني جنسهم . ان احتقار الفيلسوف للآخرين يزيد في كبرياء نفسه وفي فراغ قلبه من العواطف الانسانية : فالحب ، والعائلة ، والوطن ، تصبح ، في نظره ، كلمات فارغة من المعنى : ليس الفيلسوف نسيباً ، ولا مواطناً ، ولا انساناً ؛ انه فيلسوف .

(١) من مقدمة كتابه: « نرسيس » ( Narcisse ) .

## مصدر اللفظة

ان لغة (١) الانسان الاولى ، اللغة الاكثر شمولاً ،  
والاكثر قوة ، اللغة الوحيدة التي افتقر اليها قبل افتقاره  
الى اقناع البشر مجتمعين ، هي هتاف الطبيعة . بما ان  
هذا الهتاف كان ينبعث عن شبه غريزة ، خلال الظروف  
الملحّة ، طلباً للنجدة في الاخطار الجسيمة ، او تقريباً  
عن النفس في الآلام الحادة ، لذلك لم يكن يُستعمل الا  
نادراً في مجرى الحياة العادية والاكثر رقابة ؛ ثم ، حينما  
بدأت افكار البشر تنتشر وتتكاثر ، وبدأت المواصلات  
والعلائق تنمو بينهم ، اخذوا يبحثون عن علامات تفاهم  
أعم ، وعن لغة اكثر شمولاً ، فزادوا نبرات الصوت  
تعداداً وازادوا اليها الاشارات التي هي ، من طبيعتها ،  
اكثر تعبيراً . كانوا هكذا ، يعبرون عن الاشياء المنظورة ،  
المتحركة ، بواسطة الاشارات ؛ وعن الاشياء التي تتناول  
السمع ، بواسطة اصوات مماثلة ؛ ولكن ، بما ان الاشارة  
لا تدل الا على الاشياء الحاضرة او السهلة الوصف ، وعلى  
الاعمال المنظورة ؛ وبما ان استعمال الاشارة ليس شاملاً  
لان الظلمة ، أو أي حجاب آخر ، يجعل الاشارة

(١) من خطاب في موضوع السؤال التالي : « ما هو مصدر التفاوت  
بين البشر وهل تجيز سنة الطبيعة هذا التفاوت ؟ »

معدومة الفائدة ، لذلك اضطروا الى الاستعاضة عنها بتعدد نبرات الصوت بالرغم من انها ليس لها ذات العلاقة مع بعض الافكار ، لكنها اجدر بتمثيلها جملة . بيد ان هذا التحول لم يمكن حصوله الا باتفاق مشترك ، وباصطلاح عام ، وبصعوبة وعناء لأن السنة البشر كان ينقصها التمرن على النطق ، وكان ينقص ادمغتهم التمرن على التصور ، وكذلك لان هذا الاصطلاح العام كان لا بد له من ضرورة ماسة تحتمه .

### وضع الانسان البدائي

ان اول انسان أحاط قطعة من الارض بسياج وقال : « هذا ملكي » ووجد اناساً بسطاء صدقوا بما قاله لهم ، ان هذا الانسان هو مؤسس المجتمع المدني . فلو ان احداً أقدم ، آنذاك ، على هدم هذا السياج هاتفاً بابناء جنسه : احذروا من ان تصدقوا كلام هذا المشعوذ المكار ، ولا تنسوا ان ثار الارض للجميع وان الارض ليست لاحد ، فكم كان وفر على البشرية من جرائم ، وحروب ، وقتل ، وشقاء ، وفظائع ! ولكن هذا لم يكن بالمستطاع لسبب تطور اوضاع البشر الذي افضى الى وجوب خلق الملكية الفردية ،

وهو تطور انضجته اجيال من التقدم الصناعي ،  
والطبي ، والاجتماعي .

ان اول احساس شعريه الانسان الاولي كان احساسه  
بوجوده ، واول اهتمام آثار نشاطه ، كان اهتمامه بحفظ  
كيانه . كانت الارض تنتج له كل ما يحتاج اليه فتدفعه  
غريزته واحتياجاته الحياتية الى الافادة منه . وكان من  
بين غرائز هذا الانسان غريزة التناسل ؛ لكنها كانت ،  
بادىء ذي بدء ، غريزة حيوانية ، خالية من العواطف  
القلبية ، ومن الحب الثابت . كانت الأم ، حينها يشب  
ولدها عن الطوق ، تتركه وشأنه .

هذا كان وضع الانسان البدائي ؛ وهذه كانت حياة  
حيوان عاقل ، مقتصر على الاحساسات المحضة ، فيكاد  
لا يفيد الا القليل القليل من المواهب التي اودعها  
الطبيعة نفسه البشرية .

### حق الملكية الفردية

تلا حراثة الارض تقسيمها حتماً ، وتلت حق  
الملكية المسلم به قواعد العدالة ؛ لانه يقتضي ، لكي  
تعطي العدالة كل واحد حقه ان يكون لكل واحد شيء  
ما . يُضاف الى ذلك ان الناس ، حينما شرعوا بالالتفات الى



المستقبل ، وبالتخوف من ضياع ما يملكون ، اصبحوا  
يخشون على مقتناتهم من آثار الآخرين ان هم اعتدوا على  
مقتني الآخرين . لا يمكننا ان نتصور مصدراً آخر  
للملكية الفردية الناشئة ، سوى مصدر اليد العاملة ، ولا  
شيء سوى ذلك . ان عمل اليد الزراعي كان ، في بدء  
الملكية ، الثمن الوحيد الذي يستطيع الانسان ان يدفعه  
عن امتلاكه للارض أو ، على الاقل ، باديء ذي بدء ،  
عن استغلال ما زرعه ، وذلك سنة بعد سنة ، حتى  
سلم له بالملكية في آخر الامر .

•••

وطالما قنع الناس الاولون باكواخهم البدائية ، وطالما  
اقتصروا على لبس جاود الحيوانات ، وعلى التزين بالريش  
والاصواف ، وعلى التدقيق في صنع اقواسهم ونبالهم ،  
وبالاختصار ، طالما لم يهتموا الا باعمال يستطيع واحد  
بفرده ان يعملها ، فقد عاشوا احراراً ، سليمي الاجسام ،  
صالحين ، سعداء ، بقدر ما تسمح لهم حالتهم الطبيعية ؛  
ولكن ، منذ ان احتاج بعضهم الى معونة بعض ،  
ومنذ ان تبين لهم انه من المفيد ان يكون الواحد  
ذخيرة تكفي اثنين ، فقدت المساواة من بينهم ،

ودخلت الملكية الفردية حياتهم ، واصبح العمل لازماً ،  
فتحولت الغابات الواسعة الى حقول ضاحكة مقامها  
البشر معرق جباههم ، وحصدوا ، مع غلالها ،  
العبودية والشقاء .

كان اكتشاف الزراعة وصناعة الصلب هو الذي  
احدث هذا التطور الكبير . يقول الشعراء ان الذهب  
والفضة هما اللذان حضرا الناس واشقيا الجنس البشري ؛  
اما الفلاسفة فيقولون ان الحديد والحنطة هما اللذان  
فملا ذلك . فقد ظل متوحشو امريكاً على حالتهم  
الاولى لانهم ظلوا يجهلون صناعة الحديد وزراعة الحنطة ؛  
وكانت اوروبا اكثر تنظيماً من سائر اقطار العالم ، في  
العصور الحاضرة ، لانها اوفر هذه الاقطار حديداً وحنطة .

### في الحرية

كما ينفر الفرس غير المروض ، ويضرب الارض  
برجله حينما يرى اللجام يقترب من فمه ، بينما الفرس  
المروض يمتثل ، بصبر ، السوط والمهماز ، كذلك تعصى  
عنق الانسان غير المتحضر على النير الذي يحني له  
الانسان المتحضر عنقه من غير تدمير ، فيفضل الاول  
الحرية الاشد مشقة على الخضوع الاكثر راحة . لا

نستطيع ، اذن ، ان نحكم على مؤهلات الانسان الطبيعية للحرية او للاستعباد استناداً الى انحطاط الشعوب المستعبدة ، بل ، بالاحرى ، استناداً الى الكفاح المستميت الذي خاضت غماره جميع الشعوب الحرة ذوداً عن حريتها . اعرف جيداً ان الشعوب المستعبدة تميل الى مديح السلام والأمان اللذين تتمتع بها في قيودها ؛ ولكن ، حينما ارى تلك الشعوب التي تضحي بالملذات ، وبالراحة ، وبالأموال ، وبالحياة نفسها في سبيل الحفاظ على هذه الحرية المعبودة التي يحتقرها اولئك الذين أضاعوها ، وحينما ارى تلك القبائل البدائية تحتقر ، في عريها ، البهارج التي يأتونها بها الاوروبيون ، وتتحدى الجوع ، والنار ، والحديد ، والموت دفاعاً عن استقلالها ، حينئذ اعلم ان العبيد غير جديرين بالتكلم عن الحرية .

### الانسان صالح بطبيعته

لنصلح أعماق انفسنا ، يا صديقي الشاب ، لكي نرى ، بعيدين عن كل غرض شخصي ، الى اي

( ١ ) من كتاب روسو : « اميل » ؛ ( قانون ايمان النائب الاسقفي السافوي ) .

شيء تدفعنا أميالتنا؟ أي مشهد يطيب لنا أكثر: أعذاب  
الآخرين أم هناؤم؟ أي شيء يلذ لنا أن نعمل فيترك  
لنا أطيب الذكرى: أعمل خير واحسان، أم عمل شر  
واذية؟ لأي الاشخاص نتحمس على مسارحننا:  
ألمجرمين الاتانيين أم للأخيار الصالحين؟ الأامينين  
للصداقة والانسانية أم للذين يضربون بها عرض الحائط؟  
ألا يطيب لنا ان نتقاسم أفراحنا مع بني جنسنا؟ لو  
كان قلب الانسان فارغاً من الاخلاق، فمن اين تأتيه  
هذه الحماسة للاعمال البطولية، وما شأن هذه الحماسة  
مع مصلحته الخاصة؟ لماذا أفضل ان اكون كاتون شاقاً  
امعساء حزناً على الحرية المغلوبة، على ان اكون قيصر  
الغالب؟ انزعوا من قلوبنا حب الجمال فتزعوا منها لذة  
الحياة. ان الانسان الذي خنقت امسواؤه المنحطة  
العواطف الرقيقة في نفسه الضيقة، والذي جرت انانيته  
الى عبادة شهواته السافلة، لا شك في انه فقد كل حماسة  
نبيلة، وتحجر قلبه فلم يعد يخفق لأي شيء مفرح، او  
ينبض بأية عاطفة سامية؛ لقد فقد الشقي شعوره وغاية  
حياته وأصبح في عداد الأموات.

مهما كثر عدد الاشرار على الارض، تظل ضئيلة

العدد تلك النفوس النتنة التي فقدت كل شعور بما هو عادل وصالح . لا يحلو الظلم الا للذين يفيدون منه ويرغبون في الافادة منه ؛ اما الباقيون ، فانهم جميعهم يريدون حياة البريء ، ونفي العنف ، والدفع عن المظلوم ، ويفرحون باعمال الرحمة ، ويعجبون للنفوس الكريمة . ماذا تهمني الجرائم التي اقترفها كاتيلينا في روما منذ القى سنة ؟ ولماذا استفظعها كأنها حدثت اليوم ؟ نحن لا نكره الاشرار لخوفنا من الحاقهم الضرر بنا ، بل لانهم اشرار .

لا شك في اننا نريد ان نكون سعداء ، لكننا نريد ، ايضاً ، ان يكون الآخرون سعداء حينما لا نحول سعادتهم دون سعادتنا . ان كانت سعادتهم لا تنزع شيئاً من سعادتنا ، فانها تزيدنا . ثم اننا نشفق ، من طبيعتنا ، على الأبرياء النساء ؛ وحينما نشاهد آلامهم ، نتألم لهم ومعهم . لا يمكن للانسان ، مها تصلب قلبه ، ان يفقد كل عاطفة رحمة ، وكل شعور انساني .

يتحدث الناس عن وخز الضمير الذي يعاقب ، في الخفاء ، الجرائم المستورة ، وغالباً ما يفضحها . آه ا

من منا لم يسمع صوت هذا الضمير الديان ؟ اننا نتحدث  
عنه عن اختبار ، وزيد ان نختق في انفسنا هذه العاطفة  
المستبدة التي تعذبنا . أطيعوا الطبيعة فتعلموا بآية عذوبة  
تملك عليكم ، واي رضى عن انفسكم تتذوقونه بعد ان تصفوا  
الى أوامرها ونواهيها . الشرير يتهرب من نفسه طلباً  
للراحة وللتلهي خارجاً عنها ؛ بيد ان ملهاته الوحيدة  
هي الضحكة الساخرة . اما الانسان الصالح ، فنبطته  
في داخله : ليست السخرية مصدر ضحكته ، بل الفرح  
النابع من نفسه الصافية ، الفرح الذي يبلّغه الى من  
هم حوله .

...

يوجد ، اذن ، في اعماق انفسنا البشرية مبدأ عدل  
غريزي نحكم بموجبه على صلاح اعمالنا واعمال غيرنا ،  
او على صلاحها ؛ وهذا المبدأ هو ما أسميه الضمير .

### الضمير

وجودنا يعني احساسنا ١ ؛ فاحساسنا ، اذن ، سابق  
لفهمنا ، وعواطفنا سابقة لافكارنا . مهما كانت علّة

---

(١) من كتاب روسو «اميل» ، (قانون ايمان النائب الاسقفى السافوي) .

وجودنا ، فقد منحتنا هذه العلة ، بقية حفظ كياننا ،  
عواطف معينة ثلاثم طبيعتنا ، ولا يمكن لاحد ان ينكر  
ان هذه العواطف ولدت معنا . انها ، بالنسبة الى الفرد :  
حب النفس الشرعي ، والخوف من الألم ، واستفطاع  
الموت ، والرغبة في الهناء . ولكن ، ان كان الانسان  
كائناً اجتماعياً من طبيعته او ، على الاقل ، مؤهلاً لان  
يكونه ، فلا يمكنه ذلك الا بواسطة عواطف اخرى هي ،  
ايضاً ، غريزية بالنسبة الى النوع البشري ؛ اما بالنسبة  
الى الحاجة المادية فحسب ، فانها جديرة بتفرقة الناس  
بدلاً من جمعهم . فالدافع الوجداني ، او الضمير ، يتولد ،  
اذن ، من الجهاز الاخلاقي الذي يتألف من هذه العلاقة  
المزدوجة : علاقة الانسان بنفسه وبأبناء جنسه . ليس  
للانسان علم غريزي بالخير ولكن ، حالما يكشفه عقله  
له ، يدفعه ضميره الى محبته ، وهذا الدافع هو الغريزي .  
لنقتصر ، اذن ، على الدوافع الاولى الكامنة في طبيعتنا  
لان الدرس يرجع بنا ، دائماً ، اليها .

ايها الضمير ، ايها الغريزة الالهية ، ايها الصوت  
الساوي الخالد ، ايها الدليل الامين لكائن جاهل  
ومحدود ، مدرك وحر ؛ ايها القاضي المعصوم الذي

يفصل بين الخير والشر ويجعل الانسان شبيهاً بالله ، انت ،  
وحدك ، الذي ترفع طبيعة الانسان ، وانت ، وحدك ،  
الذي تميزه من البهائم ، لانه لا يجد في نفسه ، خسارياً  
عندك ، سوى المقدرة المؤسفة على التيهات من ضلال الى  
ضلال وراء إدراك بلا هادٍ ، وعقل بلا مبادئ .

ها نحن ، بحمد الله ، قد تخلصنا من كل هذه الأداة  
الفلسفية الهائلة : اننا نستطيع ان نكون بشراً من غير  
ان نكون علماء . لقد أعفينا من هدر ايام حياتنا في  
درس الاخلاق لان لنا دليلاً هادياً يهديننا ، مجاناً ، في مَنته  
الآراء البشرية المترامي الاطراف . ولكن ، لا يكفينا  
ان يكون لنا دليل ، بل علينا ان نعرفه وتتبعه . فان  
كان يتحدث الى جميع القلوب فلماذا لا يصغي اليه الا  
القليل من البشر ؟ ذلك لانه يكلمنا بلغة الطبيعة ، هذه  
اللغة التي ينسينا اياها كل شيء : فالتقليد الاعمى هو  
اكبر عدو للضمير الذي يهرب منه او يسكت امامه ؛  
والتعصب يزيفه ويملي الجريمة باسمه . ثم انه ييأس ، اخيراً ،  
منا لكثرة ما نصرفه بخشونة فلا يعود يكلمنا ، ولا  
يحيينا ، بل يغادرنا فاقدأ كل ثقة بنا .



## الرجل الحكيم في الضيق

في جميع الشرور التي تتناوبنا<sup>١</sup> نحن ننظر الى النية اكثر مما ننظر الى النتيجة : ان آجرة تسقط من علو سطح يمكنها ان تجرحنا اكثر من حجر تقذفنا به يد بغیضة ؛ ومع ذلك ، فان هذا الحجر يفضينا اكثر مما تبغضنا تلك الآجرة . يمكن للضربة ان تخطيء هدفها ، ولكن النية لا تخطئه ابداً . ان الألم الجسدي هو الذي نشعر به الشعور الاقل في البلوى ؛ وحينما لا يحسد المتبتلون من ينحون عليه باللائمة ، فانهم يلومون الحظ فيجعلونه شخصاً له عينان ، وفهم ، وارادة ، قاصداً تعذيبهم . لكن الرجل الحكيم الذي لا يرى في البلايا التي تتناوبه سوى ضربات القدر الاعمى ، فانه يظل هادئاً الاعصاب محتملاً آلامه بصبر . يتألم جسده ، لكن نفسه تظل ساكنة .

ان الرجل الحكيم الذي يتوصل الى قطع هذا الشوط من الحكمة يكون قد احرز تقدماً كبيراً ، لكن هذا التقدم وحده لا يكفي : لقد أوقف الداء ، لكنه لم يستأصل . شافته ، لأن هذه الشأفة ليست في الكائنات

(١) من كتاب روسو : « تأملات متزه معتزل » (النزعة الثامنة) .

الخارجة عنه بل في داخل نفسه . اليك ما أحسسته تمام  
الاحساس منذ ان بدأت اعود الى نفسي : بما ان  
عقلي لم يكن يجد شيئاً من الصحة ، ولا من النطق ، في  
جميع التأويلات التي كنت اعلل بها ما كان يحصل لي  
من الشدائد ، فقد علمت ان هذه الأسباب التي اجعلها ،  
والتي لا استطيع ان اتبينها ، يجب ان تكون لغواً في  
نظري وتجاه نفسي ، وقدرأ اعمى لا توجيه فيه ، ولا  
نية ، ولا قصد ، ولا حيلة لي به ؛ لذلك ، يجب علي  
ألا اقف على البحث في اسبابه الطاقة الباقية لي لاجل  
احتمال ضرباته . هذا ما كنت اعظ به نفسي ، وما  
كان يسلم به عقلي وقلبي ؛ ومع ذلك فقد ظلمت اسمع  
قلبي يتدمر في داخلي . فمن اين كان يأتي هذا التدمير ؟  
لقد بحثت عن مصدره فعثرت عليه : لقد كان يأتي من  
الانسانية التي لا تبرح تدين البشر وترقع على العقل .

لم يكن هذا الاكتشاف سهلاً بقدر ما يُظن . بيد ان  
اعتبار الذات هو المحرك الاقوى الذي يحرك النفوس  
الآبية ؛ بينما الانانية ، التي تغمرها الأوهام ، تتنكر لذاتها  
وتقوم انها هي ذلك الاعتبار ؛ ولكن ، الى حين .

كنت ، دائماً ، انفر من الانانية ؛ وبالرغم من ذلك ،

فقد بُليت بها زمناً ، ولا سيما يوم أصبحت مؤلّساً .  
غير ان الدروس القاسية التي لقني اياها الدهر اعادت  
انانيتي الى حدودها الاولى ؛ لقد شرّعت ، بادية  
ذي بدء ، بالتمرد على الظلم ، لكنها انتهت الى احتقاره ،  
وحيثما عدت الى نفسي ، وقطعت علائقي اُخارجية التي  
كانت تجعل انانيتي كثيرة المطالب ، وعدلت عن  
المقارنات ، والمفاضلات ، اكتفت انانيتي بان اعتبر نفسي  
امام نفسي . حينئذٍ أصبحت هذه الانانية حبة النفس  
الشرعية ورجعت الى نظام الطبيعة ، خالصة عني نير ما  
يقوله الناس عني .

منذ ذلك الحين عاد السلام ، وحقى الهناء ، الى نفسي ؛  
لانتنا ، يوم تتغلب على الخوف بما يقوله الناس عنا ، وندع  
العقل يتكلم ، فان هذا العقل يعزينا ، اخيراً ، عن  
جميع الشدائد التي لم يكن باستطاعتنا ان نتجنبها ، بل  
يلاشي مفعولها حيناً لا يقع علينا هذا المفعول مباشرة ،  
وذلك بصرف افكارنا عنها ؛ فالاهانات ، والانتقامات ،  
والاعتداءات ، والشتم ، والمظالم ، لا تُعد شيئاً ازاء من  
لا يرى في الشرور التي تسببها له سوى الشر ، لا التية ،  
وازاء من لا يتوقف مقامه في اعتبار نفسه على إرادة  
الآخرين .

كيفما اراد الناس ان يروني ، فانهم لا يستطيعون  
ان يبدلوا ما انا عليه ، وبالرغم من جميع قواهم ، ومن  
جميع مؤامراتهم الخفية ، فاني اظن ، مهما فعلوا ، انا انا .  
صحيح ان استعداداتهم نحوي تستطيع ان تؤثر بوضعي  
الحقيقي : فالجدار الذي أقاموه بينهم وبينني يمنع عنى كل  
مصدر رزق وكل عون في شيخوختي : لم يبق بينهم  
وبيني لا معاطاة ولا تعاون متبادل ، ولا مواصلات ،  
ولا مراسلات . لقد اصبحت وحيداً بينهم ، وعلى وحدي  
اصبح اعتمادي ، وانا في شيخوختي وضعفي . كبيرة هي هذه  
المصاعب ، لكنها فقدت شدتها على نفسي منذ ان  
عرفت كيف احتملها من غير حنق . ان الخوف من  
المستقبل يضاعف الهموم ويزيد الشقاء شقاء ؛ اما انا فمهما  
ظهر لي وجه المستقبل كالحا ، فاني تكفيني راحة الساعة  
التي انا فيها . لم يعد للألم الذي اتوقعه تأثير بنفسي ، بل  
الألم الذي اشعر به الآن فحسب ، وهذا ما يجعل وقعه  
علي خفيف الوطء . ها انا وحيد ، ومريض ، ومتروك من  
الجميع على سريري حيث يمكنني ان اقضي نحبي من  
العوز ، والبرد ، والجوع ، من غير ان يهتم لي احد .  
ولكن ، ما م ، ان كنت انا نفسي لا اهتم لنفسي مهما  
كان مصيري ؟ اقليل اني تعلمت ، ولا سبيا في منى ، ان

ارى الحياة والموت ، والمرض والعافية ، والغنى والفقر ،  
والمجد والعار ، بنفس اللامبالاة ؟ بيد ان هذه اللامبالاة  
الثمينة ليست صنع حكمتي بل صنع اعدائي الذين  
أعاضوني بها من الاذية التي ألحقوها بي ، حينما جعلوني لا أبالي  
بهذه الاذية ، فقد أحسنوا الي بها اكثر مما لو لم يلحقوها  
بي : كان يكتفي ان اخافها قبل ان احتلمها ؛ لكنني  
بعد ان تغلبت عليها ، لم أعد اخشاها .

- H. HOFFDING**, Rousseau et sa Philosophie, 1912.
- R. HUBERT**, Rousseau et l'Encyclopédie, Essai sur la formation des idées politiques de Rousseau (1742-1756), Paris, 1928.
- JULES LEMAITRE**, J.-J. Rousseau, Paris, 1907.
- P. M. MASSON**, La religion de Rousseau.
- J. MOREL**, Recherches sur les sources du discours de J.-J. Rousseau sur l'origine et les fondements de l'inégalité, Lausanne, 1910.
- L. PROAL**, La psychologie de J.-J. Rousseau, Paris, 1928.
- Revue de Métaphysique et de morale. XX, 1912 (articles de BOUTROUX, HOFFDING, PARODI, BOSANQUET, JAURÈS, STAMMLER, CLAPARÈDE, LÉVY-BRUHL, BENRUBI, DWELSHAUVERS).
- A. SCHINZ**, La question du Contrat social (Revue d'histoire littéraire, 1912, cf. G. BEAULAVON, La question du Contrat social : une fausse solution, même revue, 1913) ; La pensée religieuse de Rousseau et ses récents interprètes, Paris, 1927 ; La pensée de J.-J. Rousseau, Paris 1929.
- J. VUY**, Origine des idées politiques de J.-J. Rousseau, 2<sup>e</sup> éd., Genève et Paris, 1889.
- Ch. WERNER**, Études de philosophie morale, Genève, 1917.

## مراجع الكتاب

### BIBLIOGRAPHIE

- BALDENSPERGER, BEAULAVON, BENRUBI, BOUGLÉ, A. CAHEN, DELBOS, DWELSHAUVERS, CASTINEL, MORNET, PARODI, VIAL, J.-J. Rousseau, leçons faites à l'École des Hautes Études sociales, Paris, 1912.
- G. BEAULAVON, Le système politique de J.-J. Rousseau (Revue de Paris, avril 1907).
- BOUVIER, J.-J. Rousseau, Genève, 1912.
- E. DURKHEIM, La pédagogie de Rousseau (Revue de métaphysique et de morale, 1919).
- ESPINAS, Le système de J.-J. Rousseau (Revue de l'Enseignement, 1895-1896).
- E. FAGUET, Rousseau penseur, Paris, 1912.
- W. FRAESSDORF, Die psychologischen Anschauungen J.-J. Rousseau's und ihre Zusammenhang mit der französischen Psychologie des XVI-XVIII Jahrhunderts, Langensalza, 1929.
- H. GILLOT, La Pensée de Jean-Jacques Rousseau, Courville, 1935.

# فهرست

ص

٧

## حياته

- ١ - روسو حتى نهايه الى باريس ص ٨
- ٢ - باريس : التأليف الأولى ص ٢٦
- ٣ - من خطاب «في العلوم والفنون»  
حتى المنفى ٣٤
- ٤ - المنفى والايام الاخيرة ص ٤٢

٥١

## فلسفته

١٠٤

## آثار روسو الادبية

١٠٧

## منتخبات

- موضوع الجزء الاول ص ١٠٧
- في حق الاقوى ص ١٠٨
- في المبودية ص ١١٠
- في وجوب الرجوع ، دائماً ،  
الى اتفاق اولي ١١٣
- في الميثاق الاجتماعي ١١٤



- في القانون ١١٦  
 في المشرع ١١٧  
 في الشعب ١١٨  
 في انواع التشريع المختلفة ١٢٠  
 في الحكومة اجمالاً ١٢١  
 في الديموقراطية ١٢٢  
 في ان وضع كل بلد يتطلب شكل  
 حكومة خاص به ١٢٤  
 في ان الارادة العامة هي اساس الحكم ١٢٥  
 في الدكتاتورية ١٢٧  
 في الدين المدني ١٢٨  
 انطاق روح فبريشيوس ١٣٥  
 خطر الفلسفة ١٣٩  
 مصدر اللغة ١٤٠  
 وضع الانسان البدائي ١٤١  
 حق الملكية الفردية ١٤٢  
 في الحرية ١٤٤  
 الانسان صالح بطبيعته من ١٤٥  
 الضمير من ١٤٨  
 الرجل الحكيم في الضيق من ١٥١

# ROUSSEAU

*SA VIE*

*SON ŒUVRE*

*SA PHILOSOPHIE*

**EDITIONS OUEIDAT**

**Beyrouth - Paris**



## زحني علمنا

- آداب الهند / لويس رونو (١٦٦) .....
- الاتجاهات الأدبية الحديثة / ألبيريس (١٥٥) .....
- الأدب الألماني / جوزف فرنسوا انجيلوز (١١١) .....
- الأدب الأمريكي / جاك فرديناند كاهن (١٥٢) .....
- الأدب السوفياتي / آلان بريشاك (١٥٩) .....
- الأدب الصيني / أوديل كالتنمارك (١٧٤) .....
- الأدب الإيطالي / بول أريتي (١٣٠) .....
- الأدب الرمزي / هنري بير (٢٧) .....
- الأدب الطبيعي / بيار كوني (٦٩) .....
- الأدب المقارن / ماريوس فرنسوا غويار (١٠) .....
- الأدب اليوناني / فرنان روبير (١٩٤) .....
- أدباء من الشرق والغرب / الدكتور عيسى الناعوري (٦) .....
- الأسطورة / ك. ك. راثفين (١٠٣) .....
- بحوث في الرواية الجديدة / ميشال بوتور (٢٠٢) .....
- الدراما والدرامية / سن. و. داونسن (١٤٩) .....
- دستوفسكي / اندريه جيد (١٧) .....
- دفاعاً عن الأدب / كلود روي (١٠٠) .....
- الرواية البوليسية / بيار بولو وتوماس نرسجك ( ) .....
- روسو / اندريه كريسون (٢٦) .....

Bibliotheca Alexandrina



0351176

EDITIONS OUEIDAT  
Beirut - Paris

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)